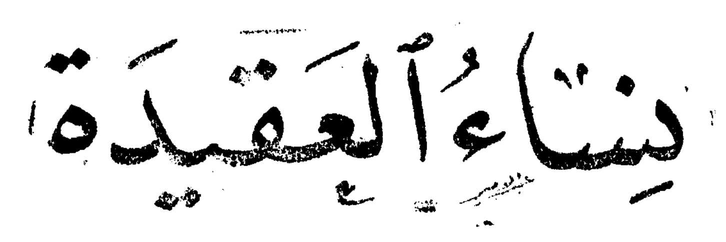
شهداء العقيدة



القسم الاول

بقلم تقي الموسوي



القسم الاول

بقلم تقي الموسوي

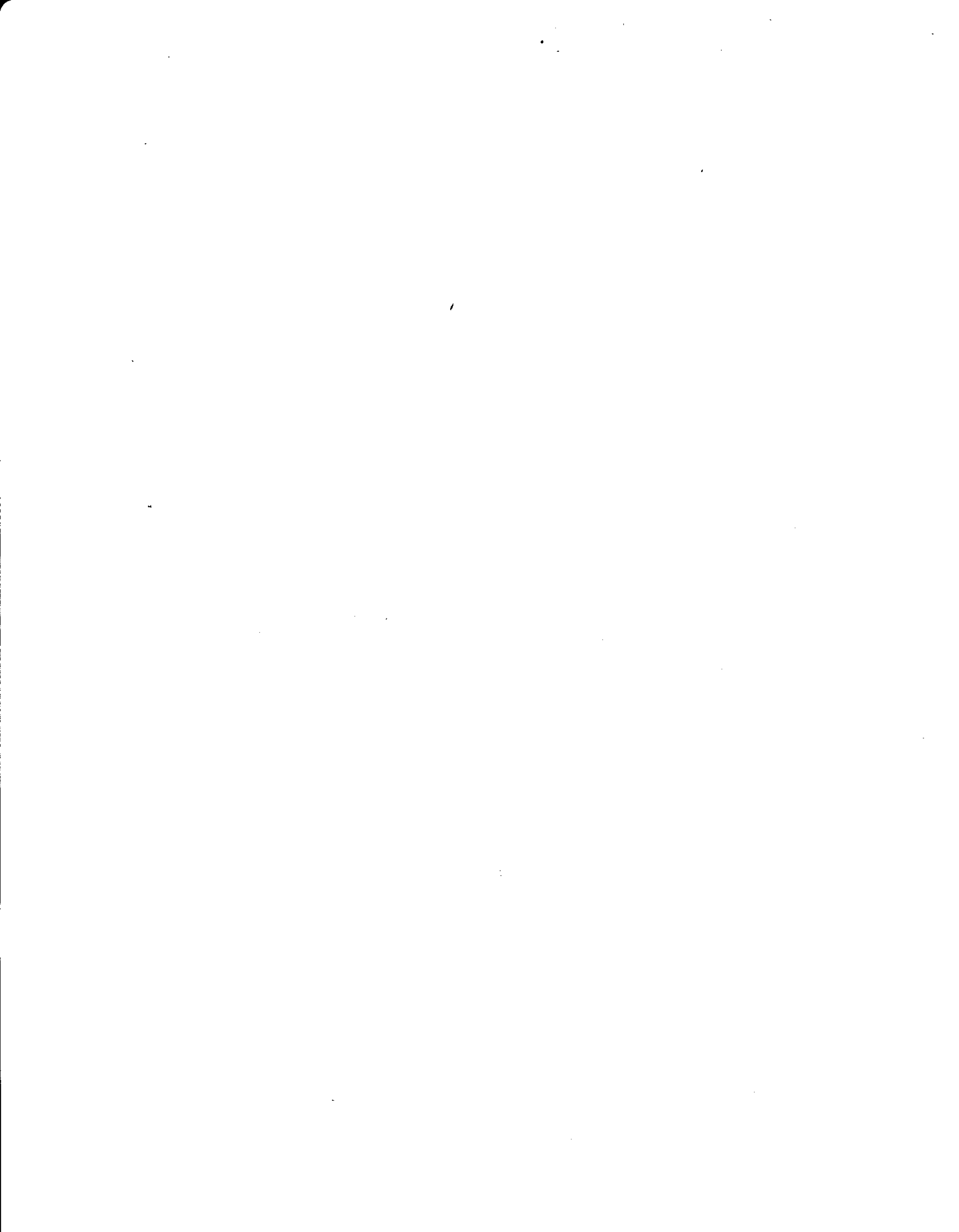
الطبعة الاولى

١٣٩٧ — ١٩٧٧

مطبعة الغري الحديثة — نجف — تلفون ٣٣٢٦٨٢

الإهداء

الى اللائي عرفنَ الطريق القويم وسرن عليه
واللائي انكرنه وجهلنه اهدي اشراق هذه المواقف
العظيمة تثبيتاً للطيبات عليه وحثاً لهن على السعي
لأجله ودليلاً للحائرات اليه .



المقدمة

بقلم الكاتبة الكبيرة بنت الهدى



كانت المرأة المسلمة الى عهد قريب تفتقر الى شيء من الشعور بالمسؤولية الدينية الملقاة على عاتقها تجاه بنات جيلها المسلمات ، ولذا نجد الكثير مما يهم للمرأة بحثه والتعرف عليه قد اصبح غريبا عنها لاتكاد تبصر منه سوى معالمه الباهته ، وذلك لانه بين حالين : فهو اما مهمل في دنيا البحث والتنقيب ، واما مسطر كتبته الاقلام الصالحة من الرجال ، والمرأة مهما تفاعلت مع اقلام الرجال فهي سوف تكون اكثر تفاعلاً ، واعمق تأثراً لو قرأت مايخصها بقلم امرأة تعيش ما تعيشه هي من واقع في الحياة ؛ ولهذا فأن نجد من بنات الاسلام واحدة تعي ما لها وما عليها بالنسبة لدينها الحنيف لهو احسن بادرة امل بعودة للمرأة

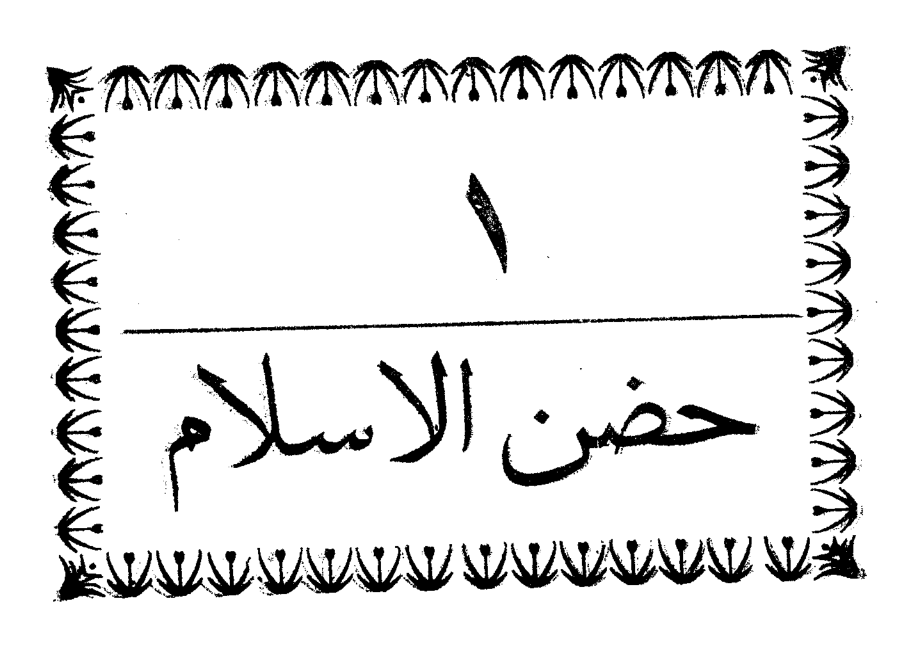
المسلمة الى رحاب الله ، وهذه المجموعة الخيرة من (نساء العقيدة) تتحدث بصدق وخلوص عن واقع زاهر كانت تعيشه المرأة المسلمة امس وافتقدته ومع اكل اسف اليوم ، فهي تحكي عن الايمان كيف يسبغ على قلب المرأة بدلاً عن نفحات العواطف جذوات الحماس ، وكيف يلبسها عوضاً عن مطرزات الوشي ابراد التضحية والفداء .

ثم ان هـذه المجموعة من تواريخ امهاتنا المسلمات ترسم ابعاد العواطف في ميادين الحياة ، فتبرز من بينها عاطفة الايمان وهي قوية شامخة تتحدى كل اعصار واغراء ، وتصورها بارزة في الخطوط الاولى من سجل الاحاسيس ، ولهذا فقد جاءت والحمد لله اضمامة صالحة جديرة بالتوفيق والتسديد ، فأسأل الله تبارك وتعالى ان يوفق الكاتبة العزيزة « تقى » للعمل على مراضيه ، والتفرغ الى امثال هذة الجهود المشكورة .

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)

والله ولي التوفيق .

النجف الاشرف   بنت الهدى



١

حضن الاسلام



لم تنفتح عين الدهر ، ولم يطلع قلبه على زواج هو أبهى واغر وارفع من زواج محمد وخديجة ، تلك التي شاركته في تحمل العبء العظيم الذي القته على كاهله السماء ، وخاضت معه صراعه مع الضلال ، عندما انطلق الفجر منتفضاً من تحت دثار الليل الساجي ليبدد ظلماته الداجية ، وينشر بسماته نوراً وضياءً ، وعندما اشرقت شمس اليوم الوليد ، ومضت تبعثها أمواجاً من السناء ، فأضاءت كل شبر ، وأطاحت بكل سدفة . وازاحت عن وجه الحياة سحائب الالام وغشاوات البلادة والشقاء وعندما انفتق بطن اللطف عن رجل الخلود وخاتم المرسلين . لقد جاء والارض مظلمة لاهبة لم يعد يسمع فيها الا زئير العواصف ودوي الزوابع وعواء الذئاب — ليرفع نقاب البؤس

الخانق عن وجه الحياة ، وليرش دروبها بالامن والسعادة ، وليحمل على راحتيه فيض الخير فيبلّ ظمأها اليه ، وليبقي هيكل الاسلام العظيم على متن بشره ونضارته ودمه الزكي ، فمضى قلبه الكبير الفذ يشتعل لينير الدرب للخابطين ، وولت نفسه العظيمة المشرقة تتقطع اشلاءً من نور ، وتتوزع على أرجاء الدنيا . وكاد ان يمضي على دربه العسير وحيداً ، لولا أنْ بوأ الله له في ثلاثة قلوب زكية موطن النصرة والبذل والتضحية وفي الطليعة كان عمه العظيم الذي عرف الاسلام اسمى عقيدة وارفع دين ، فمضى يذب عنه ، ويفديه بما عز عنده وغلا لديه ثم كان ابنه الصبي النابه والباسل المقدام ، وكانت خديجة . فلقد عرفت في محمد من قبل رجل الخلود فأحبته وصبت به ، وسعت الى ان تجتمع معه في اسمى زواج ، وكان لها ما أرادت فاحتضنت فتاها الحبيب ، ومضت ترش ورود العزم ورياحين التشجيع أمامه على مسيرته التي ملأت فكرها بالعجب والذهول . فكلها غموض وخفاء ، فلم العزلة عن انس الحياة ؟ ! ولم السكنى في الغار البائس ؟ ! ولم التحنث والانطواء ؟ ! .

وادركت بعدها أنّ له شأناً ارادته له السماء فلابدّ أن يبلغه ، وأن ثمة يداً تسير به الى دنيا الكمال . ولم تزل تلاحقه في غدوه ومجيئه ، وتتبعه بقلبها وفكرها . وتبعث خلفه بعبيدها

ليرعوه ويذبوا عنه العوادي ، ويزيلوا عن وجهه المكاره . وبين احضان حبها مضى محمد يسير ويخطو لا يأبه للصعاب ولا يحفل بالمتاعب . ولم يكد يأتيها بعد الوحي وقلبه لم يعد فارغاً كما بالامس ، فقد غمره الله بفيض نوره ، ووضع على عاتقه شأن التحرير وقد غمره الخشوع وتكنفته الهيبة ، لما قد نزل اليه من عند ربه حتى قامت اليه والبشر يملأ ابرادها والسرور يفوح من اعطافها ، وشدت على يديه بالتصديق والتأييد ، وفرشت له قلبها الفائح بالعطف والحنان ، ووضعت بين يديه كل ما تجود به قريحتها في دفع وتشجيع ، واعطته زمام التصرف بمالها ، يمين به العاني ، ويطعم به الجائع ، ويعطي المحرومين من اتباعه ، وقد تكالبت الدنيا ومن فيها عليه وعليهم . وقفت خديجة مع محمد جنباً الى جنب في شدة الصراع حيث المعترك رهيب ، وخضم الاهوال مهيب عصيب ، لتصاول بعزيمة الاحرار وثبات الصناديد ، لتزيل عن دربه بعض العقبات ، ولتبث في قلبه الدفء والراحة ، حتى لقد شكر الله لها سعيها ، اذ بعث بأمينه جبريل الى النبي ليقول له :

ـــ اقرىء خديجة عني السلام .

فيزف لها النبي سلام ربها عليها فتغمرها البهجة ، ويعمها الانشراح ، وتجيبه والبسمة تعلو محياها :

— الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

وتنفث قريش في دنيـا حربها للرسول وصدها إيـاه من تبليغ رسالته من حقدها المتأجج بأعلى المكائـد ، فتضطره الى الشعب ، وتحاصره في سجنه المقيت ، لا يباع اليه ، ولا يشترى منه ، فاشتدت ضراوة الامر عليه ، واغمضت السعادة عينيها عن خديجة فجعلتها تئن تحت وطأة الالم ومرارة العيش وخشونته . مولوعة الوحـــدة والانفراد ، فقد قاطعتها نساء قريش فلم تعد تزورها منهن واحدة ، ولكن الله شاء ان يصحبها امرأة هي خير منهن واعظم ، تسامرها من دنيا الوداعـة والبراءة وبأحسن الحديث واطيبه واشهاه ، فكانت ابنتها الزهراء ، ومن بطنها تشيع في نفسها الانس والبهجة ، اذ تباغمها وتناغيها ، ويالروعة الامر وجلاله ، حتى لقد نسيت دنياها وما فيها ، الا محمداً فهو روحها التي تسري في احنائها ، ودمها الذي يجري في عروقها ، وعلى حين دخل الرسول عليها ، والزهراء تناجيها فعجب لامرها لانها تتكلم وليس معها احدٌ تكلمه ، فسألها عن ذاك فأجابته :

— انّ الجنين الذي في بطني يحدثني ويؤنسني .

فلم يكن منه الا أن اطلعها على حقيقتها ، وانها ليست كأحدٍ من الابناء الذين الفتهم على الارض ، ولكنها ابنة السماء

وسنحة يدها العظيمة ، وانها الحوراء الأنسية ، ويقترب زمان الوضع ، وتحين ساعة الولادة .

وخديجة ليس معها الا ابنتها التي تريد ان تخرجها من ظلمات بطنها الى نور الحياة ، فمنّ الله عليها تارة اخرى ، فبعث اليها من يعينها على امرها ، فانزل اليها من السماء اربعا من قمم النساء ، حواء ، ومريم ، وآسيه ، وكلثم اخت موسى ، وقمن لها بالذي تحتاجه تكريماً لها ، وتعظيماً لشأنها ، وتمجيداً لموقفها من الاسلام ، فهي عماد من اعمدته ، وركن من أركانه التي قام عليها .

وهكذا ولدت خديجة شملتها الوضاءة ، وراحت ترضعها من معين الاسلام لبان الطهر والكمال ، وتمضي الايام ثقيلة شديدة كاسفة عل محمد واتباعه وعلى لون واحد من القسوة والبطش والعنف والأذى ، فلا ترفق ولا تلين ، وخديجة المرأة المرهفة تحت كلكلها صابرة محتسبة ، حتى لقد ذابت كل ومضة للحياة تجري في اوصالها ، واشتد عليها العيش ، وأعضلها امره فأبلاها الوهن ، واوهاها المرض ، وهدها الضعف والانتكاس ، ولم تزل تنتقل بين اطوار بلائها ، حتى كانت نهاية المطاف ، فرفعت الملائكة روحها الطاهرة الى ربها راضية مرضية ، وظل مكانها في قلب الرسول فارغاً ، ولم تحل فيه اي واحدة من

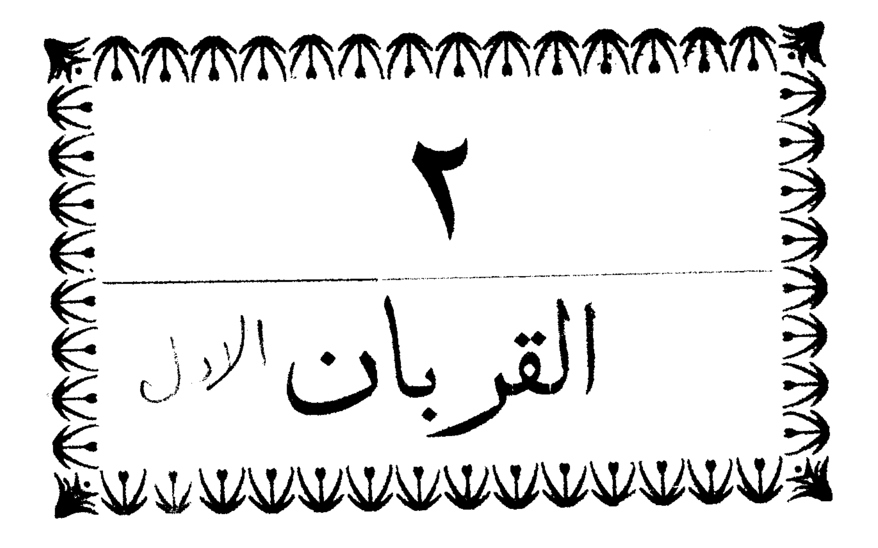
أزواجه ، حتى لقد أثار حفيظة احداهن ما كان يبديه لها بعد موتها من حب واجلال ، وما كان يظهره لرفيقاتها من عطف واحسان ، فقالت له :

— هل كانت إلا عجوزاً قد ابدلك الله خيراً منها .

فغضب ثم قال :

— والله ما ابدلني الله خيراً منها ، امنت اذ كفر الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء .





٢

القربان



واعلنت شمس الاسلام شروقها لتجلو عن العالم ليالي الضلال وقتام الغواية وجحيم الالتواء ، ولتشخص بالناس الى الطريق المهيع والسبيل الاقوم اذ هم رهائن العمى وعبيد الشهوات قد استحوذت عليهم الجاهلية ، وتمكنت من قلوبهم ، وغارت بهم في حمم التفاهة والصغار .

وبدأ محمد دعوته والمهاد قاحلة جدبة ، بـــدأ ينثر بذر الخير في تلك القفار الضارعة ، واستجاب له من شاء ان يستبدل بسورة الليل وداعة النور ولطف الاضواء ، ورسا بسفينة الاصلاح ليحمل بها من ضل عن السبيل الى المحجة ، ولكن من يستجيب ومحمد يدعو الى التحرر من دنيا الرق والاستعباد باصفاد الالهة

اناسي او حجارة وبأغلال الشهوات والاهواء ، وقد سفه الاحلام وسخر بالارباب والاصنام ، فواجه العصف وزعيق الطغيان ثابت الجنان ، رابطاً على قلبه بايمان عميق . ويروح يسقي تلك القلوب الصديانة دمه الطاهر وماء سعده وهنائه ، ليذهب بها عن ساح الصراع الى دنيا الامان والسلامة . وكان الوقع شديداً على قلوب الاكابر من قريش ، فما أن فتحوا اعينهم عليه وهو على الصفا يكفر بالحجارة ويمجد الله حتى دمدموا في وجهه كالرعود ، وعصفوا كالاعاصير ، وثاروا كالبراكين ، ونشروا في آفاقه كل الاحابيل ، فقالوا مجنون . . . . ساحر . . . . كذاب . . . . شاعر ، فلما أنْ رأوه وعزيمته كالحديد ولوا يسعون اليه بالاغراء بالملك والجاه والمال ، حتى اذا لم تفلح مكيدتهم سعوا في تعذيبه والطيبين من اصحابه . وفي الطليعة من موكب المعذبين كانت سمية .

سمع ابو جهل باسلامها فانفجرت في نفسه عيون الغضب ، وولى يجرها وابنها وزوجها الى الصحراء التي التهبت بحر الشمس فغدت كأنها جمرة ، ومضى يسلط على جسمها الرقيق تعذيبه وهوانه ، ففي تلك الساحة الكالحة اللون ، الباكية القسمات كانت وفراشها الرمل الضارم ، وغطاؤها السماء التي تدفقت

بالجحيم ، فوضعها مكشوفة الظهر على تلك الارض المتجمرة ، وبدأ يتفنن بالتعذيب ، وراح يعصر تلك الجسوم الطاهرة بين فكيه ، وولت تلك السياط اللاهبة تتلوى على الجلود الواهنة ، وفي كل حين تخطر في باله فكرة في التعذيب وطريق في التنكيل فيرقصان امام عينيه ، فيصفق لهما جذلان مبتشراً ، ثم يمضي يلوس اسراد ابرادها المقيته .

ويطبق الظلام عليهم وهم مشدودون الى الارض بضعفهم وقلة حيلتهم ، فيباتون يساهرون النجوم ترسل اليهم شعاعها ، ويرسلون اليها إشراق أرواحهم الكبيرة ، ولكم تمنوا أن يخترموا او يهتدي الجلاد ، ولكن انى لارواحهم ان تفارق الاجساد ولما يدهمها عارض الموت ؟ وانى لابي جهل أنْ يرى ويستصبح ؟ ويكر الفجر راجعاً وارواحهم تمور في أجسادهم — حاملاً لهم أبا جهل بجموحه وعناده ، ويجيئهم هـذه المرة باجناده واعوانه بقلوب دنقة ونفوس خبيثة ابت الا أنْ تفور في بحار الضياع والحرمان ، وتروح ايديهم السليطة اذ لاتستشعر القلوب التي دفعتها رأفة بكبير ولا شفقة على ضعيف — تهوي بسياطها وحرابها على تلك العصبة المكروبة ، وتظل اجسامها تئن تحت ثقل الآلام ، وترعد كأنها ريشة في مهب الريح ، واصوات الوحش تنطلق محمومة تفجر في اعوانه عزيمة الانتقام ،

فتتهافت احلام الاسارى بالنجاة تهافت القباء لما يقوض ، وانهم ليرتشفون كؤوس الهناء على انقاض الدعة لأسراء ، وهو يتحرك كانه ثور هائج .

هذه هي سمية تقلب طرفاً ضعيفاً اجهده الضنى علها ترى منقذاً من الوبال الذي البسها جلبابه عنيد قريش ، لكنها لاترى شيئاً . وماج فيهب الدنيا من جديد ، وامتدت ظلاله ، وظلت هي يطويها ستار الدهماء ودمها يسيل ليسقي الارض الضاحية ، ولتشعلها شموساً على طريق الفداء وان يكن جسمها قد خوت أركانه وانقضت ، فنفسها في علياء السماء اشد قوة من الراسيات تهفوا الى الجنة وترنوا الى النعيم .

ويشتد الغضب في ابي جهل ، ويخرج عن طوره ، فقد ارهقته صلابة الثلة التي راح يساومها على ايمانها واعز ماعرفته في وجودها ، ففي هدأة السكون وقد لف الظلام الحالك الدنيا بردائه ينطلق صوته الرهيب كأنه الزئير وبيده المشعل يكوي به لحمها الغض ويلهب حشاها الرهيف .

وهكذا ظل معها ناراً على متن إعصار ، يسقيها كؤوس البلايا ، ويرتشف هو من الامها صهباء الهناء ، ويصرخ فيها ، لقد غرك هذا المجنون ، واضلك بسحره ، فهلا كفرت بما جاء به فتكوني من طلقاء العذاب وعتقاء العناء ، ولكنه لايسمع سوى

رجع كلامه يدوي في المكان المقفر ، ونداؤها الجاهر أحد . . .
أحـــد ، وتنتابه شدة الغضب بقسوة الليث ، فينقض عليها
انقضاضه على فريسته ، ويكر راجعاً ، وتظل هي في طوايا الليل
يلفها وشاحه الاسود ، والمنايا يحمن حولها حوم الرياح حول
الربوع الزاهرة .

وهنا يمر القائـــد العظيم لينظر ما قد صارت اليه حال
اتباعه ، وقلبه يكاد ينشطر أسىً وتحرقاً ، فيراهم على حال لم
يفتح الزمان عينه على مثلها ، فتنهمر منه الدموع ، وتنتشر
كالجمر على خديه ، ويروح يتجاذب انفاسه ونفسه تكاد تذوب في
احشائـه ، ويقف يتأمل ذلك المشهد الموجع ينظر الى عيونهم
الساهمة المقبلة عليه بكل ثقة وحب ويقين مستشفة من قسماته
الحزينة على ما حل بها رضاه علنها ، وهذا معناه رضى الله العظيم .

ولا يجد محمد درباً الى نجاتهم الا أنْ يأمرهم بالصبر ،
ويمنيهم النعيم ، فتنطلق من فيه الزكي كلمة هي بلسم جرحهم
العقيم ، وشفاء قلوبهم المقروحة :

— صبراً آل ياسر ، ان موعدكم الجنة .

فتلتفت اليه منهم الطاهرة وكلها عزم وثبات ، وتناجيه :

— اشهد انك رسول الله ، وان وعدك الحق .

ولقد كان وقع كلامه عظيماً في نفسها ، فلقد أزادها صلابة
وقوة على تحمل كل الاعباء التي حملها بها ايمانها سفهاً وكان منها
أنْ تتعذب ، فها هي على متن الهول لا تحفل بزعازعه ، وقـد

امّ بها شاطىء المنايا حيث الطريق الممهد والسبيل المشرق الى الجنة ، فالمارد الفاجر لا يلوى الا على ان يطفىء آخر شعلة من هذه الشعل المتوهجة الوضاءة ، ويدوي صوته الجاهر وقد افحمته الوسائل ، الاكفوا عن متابعة هذا المجنون والا فالنهاية المحتومة وهنا ترن الكلمات الخالدة في اذنها كأنها صدح الهزار فتبعث في نفسها حب الموت ونيل المحبوب ، وكان البيداء لا تزال ترددها :

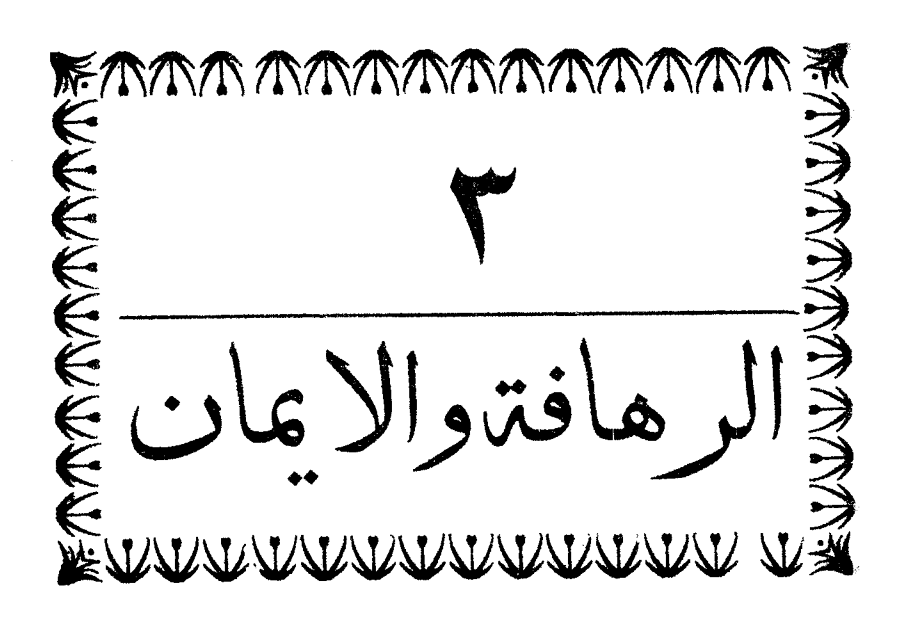
— صبراً آل ياسر ، ان موعدكم الجنة .

فتهب سمية تعصف في وجهه :

— بؤساً لك ولآلهتك .

فينطلق اليها باعنف تعذيبه ، يركلها برجله ، ويطعنها بحربته ، وقلبها صامد ، وجنانها راسخ ، لاتحفل بكل ماتلاقيه في سبيل دعوة الحق ونشر سنائها واكتساح معاقل العبودية والطغيان ، وبنفسها الرهيفة وبدنها الرقيق وقلبها الهفاف وكلها عزم على ان تمضي الى نهاية الطريق وهي في دوح ايمانها وثباتها على الحق .

وفي غمرة الآلام وقد شخص بها عنف العناء الى شفير المنية وشفا الملحودة ، فتذبل وردتها العاطرة ، وتخمد أنفاسها الندية وتفتر شفتاها وهما ترددان أحد ... أحد ، وقد علتهما ابتسامة الرضى اذ تمكنت من تلك الشعلة الخاوية بهجة المنتصر وفرحة الظافر ، فقد أدت دورها وضحت من أجل الاسلام .


٣
الرهافة والايمان



وهطلت سحائب الرحمـــة بشرعة الخـير التي تفوح بالبر والاحسان ، وها هي ليالي الجاهلية تجر أذيال الهزيمة باثقالها ومرارتها ، وها هما القتام والظلام يندكان في معين النور الـذي تدفق من وجه سيد الكائنات ، ليحيي به نفوساً ماتت وقلوباً خوت ، وليحيق به بكلكل العمى الجاثم فوق كاهل الأنسان الـذي مزقته اتعاب تيهـه والآم ضلالته ، فهو يغرق في خضم الاهوال ، ويجوب مفاوز العناء ، وضجت في وجهه الـــدنيا ، وعوت ذئابها ، ونبحت كلابها ، وراحت افاعيها تنفث فيـه سمومها ، فهي تأبى السناء وتكره النور ، ورغم ذاك غدا ينقل خطاه غير آبه لاذاها ، ولا حافل بما تجبهه به من عنف ونكال ،

ومضى هو كما فعلت هي يخوض في دنيا الوسائل الى نيل أمره وبلوغ غايته ، فكانت السرية ، وكان الاعلان ، وكانت الهجرة الاولى ، وكان البحث عن مرفأ امين لسفينة الخير التي هو ربانها وقائدها ، ووجد ذلك في المدينة ، فاطل بوجهه الباسم المشرق عليها فاحتضنها واهلها كما تحتضن الام ولدها ، وأرهف قلبه وفؤاده لها حرصاً عليها وتثبيتاً لامره فيها ، فهو فيها اب ورائد ومعلم ، وراح ينثر فيها بذور الرحمة ، ويغرس فيها نبات الخير وهي مبتشرة ، متهللة الاسارير ، غارقة في سيب فرحتها .

عقد المؤاخاة ليلف الشمل ويجمع الكلمة على هدف واحد وغاية واحدة ، وحفر للجاهلية التي لاتزال تجد لها في القلوب علاً — هوة سحيقة لا قرار لها فالقاها فيها ، وبنى للـذين وحدهم على دينه وهم بعد على الطريق الى حقيقة الايمان مدرسة يجمعهم فيها اوقات صلواتهم وانى شاء يزقهم فيها مفاهيم الاسلام واحكامه الرفيعة ، حتى يسيروا على الدرب الطويل على بينة من أمرهم ، لاتضلهم الفتن ، ولا تنحرف بهم المسالك .

واستقرت شمس الاسلام في المدينة ، فلم تزل تهفوا اليها النفوس التي أرهقها ظلام الاشراك ، وفي طليعتها كانت نفوس الضعفاء ، فانطلقوا الى دنيا التحرير الى شرعة الله السامية ،

ينهلون من معينها الكرامة ، ويشربون من فيضها الارتياح ،
ولم يكن على الرسول الا أن يحتضنهم ويؤويهم ، فجعل من
مسجده مأوى لهم ومسكناً ، وجعل من بره بهم وعطف اتباعه
وانفاقه عليهم وسيلة عيش لهم حتى يفتح الاسلام أمامهم أبواب
الخير فينطلقون في الارض يبتغون من فضل الله آمنين مطمئنين .
وكان الرسول فيهم كاحدهم لا يترفع عنهم ، ولا يستنكف عن
الجلوس بينهم ، ولا الاكل معهم ، كان يفيض حنواً عليهم ،
ويمور رأفة بهم .

وذات حين — وبينما هو بينهم يدلهم على حقيقة الاسلام
ويريهم تعاليمه الساطعة — إذ التفت الى رجل منهم من قباح
السودان دميم قصير — كان سأم بؤس الظلمات ، واحب ان
يغمره النور بالخير والرحمة ، فجاء من مدينة اليمامة
صوب مدينة الرسول لبغيته — وهش في وجهه وابتسم ، والان
له حديثه :

— يا جويبر لو تزوجت امرأة فعففت بها فرجك ، واعانتك
على دنياك واخرتك .

فبهت جويبر ، وتمنى ان لو تسوى به الارض ولم يكن
سمع ما سمع ، ومضى يحدث نفسه ، من هو جويبر ؟ ! ،

يوما الـــذي سيعطيه للتي يتزوجها ؟ ! ، اماله . ام جمالـه ، ام شرفه ؟ ، اليس هو الفقير المعدم ، والقبيح الدميم ، والـذليل المحتقر ؟ ، ولئن قبلته امرأة بعلاً لها ، فلا اراها رضيت بـه الا بعد أن رضيت بالشقاء عن السعادة بدلاً ، وبالذل بعد العز عوضاً ، وتلك ليست الا معتوهـة أو ضائعة رشد . واطبق عليه الصمت ، ولفه بثوبه حيناً ، ثم أبت عليه نفسه ان يدع كلام الرسول بلا جواب ، فردّ عليه والمرارة تفوح من أحناء كلامه :

— يـا رسول الله بابي انت وامي ، من يرغب فيَّ ؟ ، فو الله ما من حسب ، ولا نسب ، ولا مال ، ولا جمـال ، فأي امرأة ترغب فيَّ ؟ .

ولم يكن جوابه هذا الا دفقة من خضم الامس الذي كان يغرق فيه ، وليس هو الا وحي جاهليـة اراد الاسلام ان يبعدها عن دنياه ، وكأنه بعد لم يدرك الاسلام ومفاهيمه ، فقال الذي قال فـكان من رسول الله ان أراه رأي العقيدة العظيمة ، ووضعـه أمامه عند رأي الجاهلية الـذي تولى هو ايضاحه ، ليجد بقلبه جلياً عظيم سمو الاسلام ، وخطير سقوط الجاهلية ، فقال له :

— يا جويبر ان الله قـد وضع في الاسلام من كان في الجاهلية شريفاً ، وشرف بالاسلام من كان في الجاهلية وضيعاً ،

واعز في الاسلام من كان في الجاهلية ذليلاً ، واذهب بالاسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها ، فالناس اليوم كلهم ابيضهم ، واسودهم ، وقرشيهم ، وعربيهم ، واعجميهم من آدم ، وان آدم خلقه الله من طين ، وان احب الناس الى الله عز وجل يوم القيامة أطوعهم له واتقاهم . وما أعلم يا جويبر لأحدٍ من المسلمين عليك اليوم فضلاً الا لمن كان اتقى الله منك واطوع .

فشاعت الفرحة في ارجائه ، ودب البشر في انحائه ، ولكنه وجد نفسه امام شيء آخر ذي بال ، فلئن كان الاسلام بشموخه هذا وتساميه وصفائه ، فكيف بذويه ومتبعيه؟ أيرضيهم حكمه هذا بشأنه ؟ ، وهل سيتخلون عن نظرتهم الخبيثة السالفة الى أمثاله ؟ ، وهل سيجعلون من الايمان معياراً يزنونهم به ؟ .

وشاء الرسول ان يقرن قوله بفعله ، وان يضع امام جويبر وسواه صورة مشرقة وضاحة من دنيا الاسلام العاطرة ، فادلى الى جويبر قائلاً :

— انطلق يا جويبر الى زياد بن لبيد ، فانه من اشرف بني بياضة حسباً فيهم فقل له — اني رسول رسول الله اليك ، وهو يقول لك ، زوج جويبراً ابنتك الذلفاء .

ويا لها من داهيـة حلت عليه جاءه بها الرسول بعد التي سبقتها ، فلقد كان اذهله ان يعرض عليه الرسول أمر التزويج فكيف به وقد وجهه الرسول الى أن يتزوج من الذلفاء ابنة زياد ربيبة الحسن ، وغذية الجمال والجاه والغنى ؟، واخذته هزة المصاب وفورة الاضطراب ، وسكر حيناً بخمرتهما الجياشة ، ثم عاد الى صحوه وقد وجد نفسه من جديد امام امر الرسول إياه بما ادهشه ، وكان الـدفع في نفسه الى طاعة الرسول اشد من الـدفع الى طاعة نفسه واتباع هواها ، فقام مثقلاً متعباً مهزوزاً ، واتجـه صوب ابن لبيد متعثر الخطا ، تعج في نفسه عواصف الخوف والوجل ، وتعصف فيها رياح الحياء والخجل .

ويحتدم في داخله النزاع بين الاقدام والاحجام ، ايقدم؟ ومن اين له الجرأة على مشافهة زياد بالـذي أمره به الرسول ، ام يحجم ، ويرجع الى محمد فيقول له ، دعني هكذا بغير زواج فهو خـير مما تدعوني اليه ، ولكن تردده في أمر الزواج الى ابي الذلفاء اهون من تردده في ردّ قول الرسول ، فيحث خطاه نحو الغاية ، ويصل دار الرجل ، ويطرق بابها بيد مرتجفة متخاذلة فيخرج له منها زياد فيحييه ويكرم مجلسه في بيته وقـد اكتظ بزائريه ، واستقر بـه المقام بينهم ، واراد أن يتكلم بالذي جاء

بـه فاعتقل لسانه ، وخار بيانه ، وارتدت الكلمات الى جوفه ، ولولا أن أسعفه نداء زياد اليه يسأله عما جاء لاجله لكان لزم الصمت غير ناكل عن صحبته ، فربط على قلبه وتشجع ثم قال :

— يـا زياد اني رسول رسول الله اليك في حاجـة لي ، فابوح بها ، لم اسرها اليك ؟ .

فقال زياد :

— بل بح بها ، في ذلك شرف لي وفخر .

— ان رسول الله يقول لك زوج جويبراً ابنتك الذلفاء .

ووجد زياد نفسه امام شيء غريب لم يسمع بـه ولم يره الامن جويبر عن رسول الله عن عقيدته ، فسدت عليه منافـذ الصواب ، وحار في أمره ، وقد أخذه الارتجاف ، وغمر جبينه العرق حياءً بما جاءه به جويبر عن نبيه .

وكاد أن يصيح به ان اخرج لا أمّ لك ، فمن انت حتى تكون زوج ابنتي ، وانا زياد شريف بني بياضة ، وابنتي الذلفاء حسناء لذاتها ؟ ! ، ولكن بعض نور الاسلام كان يشع في نفسه فتلطف له ولان وراح يسأله بحيرة وعجب :

— ارسول الله ارسلك بهذا ؟ ! ، انا لا نزوج فتياتنا الا

اكفاءنا من الانصار ، فانصرف يا جويبر حتى القى رسول الله فاخبره بعذري .

واراد زياد بذلك ان يستر عين الالم ، التي تدفقت عليه من جويبر .

وجويبر وقد افهمه الرسول رأي الاسلام في هذا الشأن ، لم يجد بدًا من أن يستنكر ما رآه من زياد ، فمضى وهو يهز يده ويردد :

— والله ما بهذا نزل القرآن ، ولا بهذا ظهرت نبوة محمد .

وجاء الذلفاء في خدرها نبأ ما جرى بين ابيها وجويبر في شأنها ، فعجبت لما أبداه ابوها لرسول محمد اليه ، وامتناعه عن جوابه وتنفيذ وصية النبي الكريم ، وكأن الأمر ليس بالعسير عليها وهي الذلفاء تدعى الى الزواج من جويبر الذي لا تجد فيه ما يرفعه ويمجده غير ايمانه ، وكيف يكون صعباً عليها وقد ماتت في نفسها شرعة الامس الجائرة ، وعلا فيها جلال الاسلام العظيم . وارسلت الى ابيها ان يدخل عليها ، فجاءها فقالت له :

— ما هذا الكلام الذي سمعته منك تحاور به جويبراً ؟ .

— ذكر لي ان رسول الله ارسله ، وقال يقول لك رسول الله زوج جويبراً ابنتك الذلفاء .

— والله ما كان جويبر ليكذب على رسول الله في حضرته، فابعث الآن رسولاً يرد عليك جويبراً .

ووجد زياد نفسه امام ابنته تحثه على فعل ما نفر منه ، وتدعوه الى إجابة طلب النبي الذي استثقله ، فما الذي يفعل وصاحب المقام الاسمى فيه قد اعلن عن قبوله ورضاه ؟ ، فان كان يولمه الا يجد من يحسبه شريفاً يزوجه إياها ، فسيعلم عما قريب ان الشرف كل الشرف انما هو الايمان ، والسير على هدي الحق بلا خطل ولا زلل ، وجويبر من اهل ذلك ، وستزول هذه الغمامة الثقيلة التي لم تزل ومن امس الدابر تجثم على قلب زياد الوليد في حضن الايمان ، وبعث الى جويبر يرده . فلما استقر بين يديه ، انطلق هو الى محمد وفي نفسه أمل بانه سيعفيه عما طلبه منه ، ولكنه لم يجد الا الصلابة من رسول الخير على نشر الخير ، واشاعة العدل ، وبث روح الايمان ، وبسط ظل الاسلام الندي العاطر .

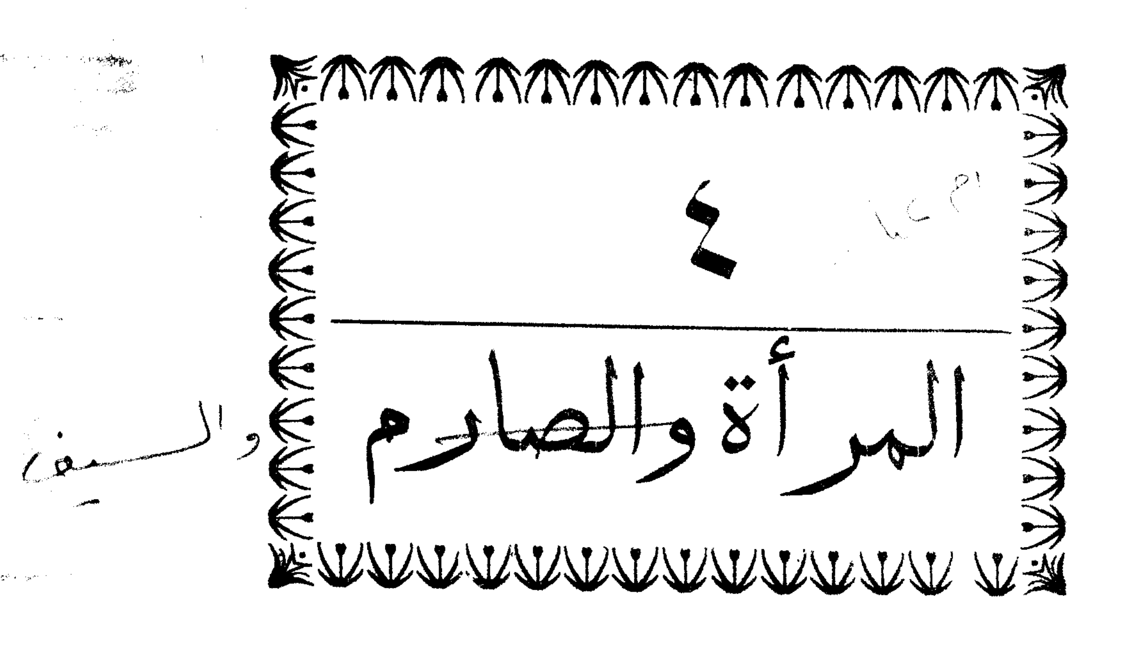
قال الرسول لزياد لما رأى منه استعطافه لمراده :

— يا زياد ، جويبر مؤمن ، والمؤمن كفؤ المؤمنة ، والمسلم كفؤ المسلمة ، فزوجه يازياد ولاترغب عنه .

فاذعن الرجل ، وكر راجعاً ، وفي نفسه بقيـة من الامل بانتكاس الامر ، فقد يرى من ابنته التهاون فيه ، والتراجع عما ابدته سالفاً ، بعد أن تجد أنه يشق عليها زواجها من جويبر ، وعند ذاك لايحق لاحد أن يرغمها على ذلك الزواج ، ويحصل زياد على بغيته ، ويظفر بما يرتجيـه ، وينجو من الشدة التي دهمته ، واسرع الى ابنته يراجعها ، ويضعها امـام الحقيقـة التي ارتجف منها قلبه ، ولكنها بصلابة المؤمن ورسوخه في ايمانه ردت على ابيها بحزم ثاقب وعزم لايلين :

— انك ان عصيت رسول الله كفرت ، فزوج جويبرا .

فسكت على الالم العاصف والغم المـبرح ، وقام الى جويبر واخرجه الى قومه فزوجه امامهم ، وضمن هو صداقه ، ولما سألوه عن مسكن تقرء به زوجه لم يشر الى بيت ، ولم يدلهم على مأوى غير — الصفة — تلك السقيفة التي هي ملجأ أمثاله من الذين سقطوا في هوة البؤس والحرمان ، فبنوا لـه بيتاً وزوجوه فيه ، وتم الـذي اراده الاسلام ، وعلت كلمته ، وكان في جويبر والذلفاء عبرة لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد .



٤

المرأة والصارم



هزني شوق جامح ، واعترتني لهفة عارمة الى جارتي والسر الذي يكمن خلف يـدها المقطوعة ، فعدتها يوماً . كانت تعتلي متن الخمسين ، منطقها السامق يوحي انهـا امرأة ذات رأي حصيف ، وقـد سمعتا نها تروي الحديث ، وان للرسول في حقها حديثاً يقول فيه :

— ما التفت يوم احـــد يميناً ولا شمالاً الا واراها تقاتل دوني .

وبلغت برغبتي حياض وردها ، فسألتها :

— حدثيني يا ام عمارة خبرك ، وقصة هذه اليد المقطوعة .

فتأوهت وكأن احداث الامس قد مثلت امام ناظريها ، ثم استعبرت باكية واطرقت حيناً ، فرحت مع العجب الشديـد في

شأنه لامرها هذا ولما رأيته على كتفها من جرح أجوف له غور فاضطرمت فيَّ جحيم الرغبة فالحفت عليها بالسؤال ، فرقت لي وأشفقت علي ، وكسرت طوق صمتها وقالت :

— لم تزل قريش تئن من العار الذي وصمتها به وقعة بدر ، ولم يزل ذلك العار يشعل الدنيا عليها ناراً ، ويلهب مشاعرها ، ويهيج عواطفها ، ولم يزل اللهب يستشري ، وزئير العاطفة يقوى وكانما الموتى شخوص ماثلة امامها تهيب بها أن هبي لاخذ الثار وخلع ثياب الخزي والعار ، واذيقي محمداً واتباعه جزاءهم الاوفى من في التنكيل ونصيبهم الأوفر من العذاب ، ولم تزل قريش وافكارها الجائشة ، ومشاعرها المهتاجة ، واحاسيسها الضارمة تقض مضاجعها ، وتكدر عليها صفوها ، ولم تمتم سحب حب الانتقام تنتشر في سمائها ، وابالسة الغدر تعصف في بواطنها ، فلم تدع لفورة مشاعرها ان تهدأ ، ولا لو قدة عواطفها ان تخبو ، ونشطت لتستعيد مجدها المذال وشموخها المهزوم ، ولتنتقم لصرعاها في قليب بدر ، فتجمعت ، وبذلت كل شيء لحرب الرسول . وما ان اتمت عدتها حتى انطلقت نحو المدينة علها تحقق ما رامت ، وتنال ما املت .

وكان ان علم الرسول بكيدها ، فشاور صحبه في الامر ، فشبت بينهم نار الجدال ، منهم من يرى ان من الاحجى الصمود

في المـدينة ، ومنهم من يرى ان في ذلك استسلاماً وهواناً ، فلابد من لقاء العدو خارجها .

واتفقوا أخيراً على ان يخرجوا منها ، وثمة إحدى الحسنيين ، إما النصر واما الشهادة .

وخرجت فيمن خرج ، وكان بيدي سقاء فيه ماء لأبل ظمأ الصديان ، واواسي الجرحى من جيش الاسلام ، وثمة وبالقرب من جبل احد حيث ستدور رحى المعركة ، راح الرسول يوصي أصحابه ، ويستصرخ فيهم عزيمة الايمان وهمة الابطال لنصرة الدين الذي آمنوا به ، ورضوا ان يجعلوا من ديارهم وانفسهم وأموالهم منطلقه وموضع رفعته وانتصاره ، وللصبر على لقاء الموت فان بعده الجنة والخير العظيم .

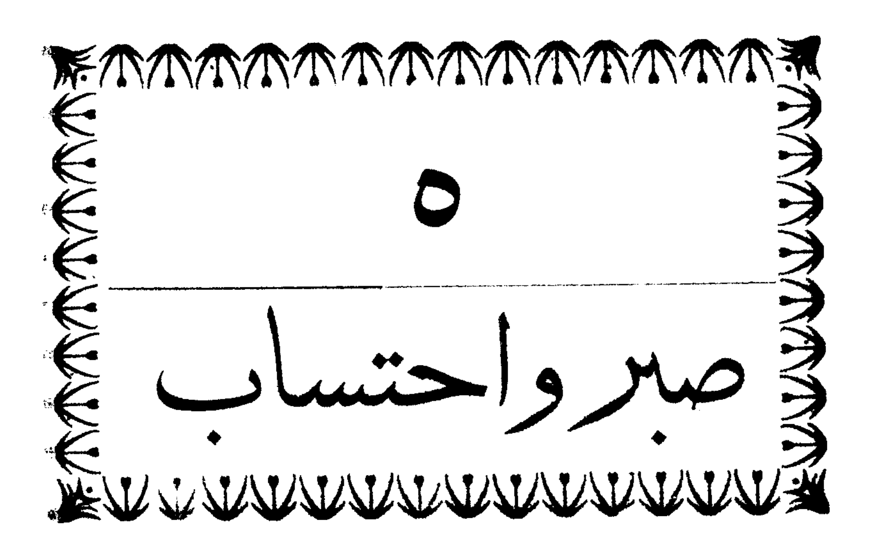
ومضى بحنكة ونفاذ فهم يعدهم للحرب ، ويخط لهم درب النجاح فيها وكسب الجولة ونيل النصر والظفر فنظم صفوف جيشه وجعل لها قلباً ، وميمنةً ، وميسرة ، وجعل من الرماة خمسين رجلاً خلف الجبل ، وشدد عليهم بقوله « انضحوا عنا بالنبل ، ولا يأتونا من خلفنا ، فان الخيل لا تقبل على النبل ، واثبتوا مكانكم ان كانت لنا او علينا ، فانا لانزال غالبين ما كمنتم مكانكم ، وان رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا ، وان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا » .

ودارت الارض الفضاء بالصفوف ، واعضل عليها الخطب ، واشتدت عليها المحنة ... وكانت معركة ضروساً نابية ، اشتركت فيها نساء المشركين ، يضربن بالدفوف ، ويقلن الاشعار ليوقدن في صدورهم الهمم والعزائم ، ويثرن فيهم الحماس ، ويحرضنهم على القتال ، ويذكرنهم بقتلاهم في الامس القريب .. ودارت الدائرة عليهم فمضوا يطلبون النجاة في الفرار ، فاوسعهم المسلمون قتلاً واسراً وسلباً ، ولم يكن من الرماة وقد راوا أصحابهم يجمعون الغنائم التي تركها العدو خلفه — الا أن تحرك الجشع في قلوبهم ، فطلبوا الى قائدهم أن يميل بهم مع اخوانهم ، لكنه أبى ان يخالف امراً القاه على عاتقه الرسول ، وان يخالف ما عهده اليه ، فاصر على البقاء ، وتعالى الصياح بينهم ، ومضى بعضهم يذكر الآخر بما اوصاهم به محمد ، وكانت ارادة النفس والهوى غالبة ، فانصاعوا للشهوة ، وتركوا مكانهم الا قليلاً منهم ، وانطلقوا الى ارض المعركة وقد خلت إلا من المسلمين ، وما خلفه عدوهم المنكسر . . . ولم تزل وصية ابي سفيان ترن في اذني خالد اذ قال له « اذا رايتمونا اختلطنا بهم فاخرجوا عليهم من هذا الشِعب ، حتى نكون من ورائهم » ولم يزل خالد يسعى لهذا الامر عند احتدام القتال ، ولكن نبل الرماة يرغمه على النكوص والتراجع ، حتى اذا رآهم قد

تركوا مكانهم احس بانفتاح باب الفرج ، فانقض بجنده على بقية الرماة عند فم الشعب . . ولم تكن الا لحظات كان قد افناهم فيها ، ودخل ارض الحرب من جديد والمسلمون قد اعطوه ظهورهم ، وقد جلببهم الزهو برادائه ، ولفعتهم نشوة النصر بثوبها ، ولم يكونوا يحسبوا الا انهم قد أزهقوا انفاس خصمهم ، فلما أحسوا بعودته اليهم من جديد ، ومفاجأته لهم ، ماجوا واضطربوا ، وغشيتهم الحيرة ، وخذلهم الارتباك ، ومضى بعضهم يضرب بعضاً ، وازاد وقع الخطب عليهم صياح عدوهم: قتل محمد . . . قتل محمد فسرى بينهم كما تسري النار في الهشيم فتطاير ضعاف الايمان من بينهم كأنهم الجراد وخلفوا محمداً والبررة الصابرين معه ، وقد كنت في من بقي ، وقد آليت على الصمود دفاعاً عن الرسول ، ولم يفتّ في عضدي ان الرجال قد انهزموا وتركوا نبيهم وقد كادت ان تذهب الحرب بالرسول ، ويقضى عليه لولا ان اسد الله وحامل لواء دينه في المهمات قد صدق ما عاهد الله عليه ، وارى العجب ما يحير منه لبه ، حتى لقد سمعنا هاتفاً في السماء يصيح بتمجيده « لا فتى الا علي ، لا سيف الا ذو الفقار »

وكانت الكتائب التي تقصد محمداً بالمساءة لا تلبث امام الشهم الباسل الا قليلاً فتعود منكسرة مخذولة ، وقلما افلت

الى النبي منهم احد فاواجهه بما املكه من قوة . . . وكان ان اقبل رجل كأنه الوحش في شراسته فتصديت له بآخر ما عندي من عزم على الدفاع فوجهت اليه طعناتي ، لكنها لم تفلح ، فدرعاه قد صدا عنه بأسها ورفع هو سيفه فطعنني على كتفي وكان هذا الجرح الذي ترين ، واما يدي هذه فكان أن قطعت في يوم اليمامة حيث خرجت مع جيش الاسلام لخذلان مسيلمة الفاجر فنصرنا الله على عدونا ، وانتهت الحرب وكان زوجي وابني ويدي بعض ما وهبناه لها من بذل وفداء .


٥
صبر واحتساب



صفية

وكان لابي سفيان ان يفرح ، وان يحتسي كأس المسرة وان يشفي غليله بالدماء التي سفكتها سيوفه ، منتقما لضحاياه الذين اكلتهم سيوف محمد يوم بدر ، فلم تزل اشباح السادة منهم . . . الوليد . . . ابي جهل . . . شيبة ، تقض مضجعه ، وتصرخ فيه منادية اياه للاخذ بالثأر ، وقد آن له اليوم ان ينشرح ويطيب خاطره ، وتخمد فورته . وقد اخذ بثارهم وازال عن وجهه وصمة العار . . . فها هي الجثث تغرق بالدماء ، انتقاماً لما كان — وفي طليعتها كان جثمان حمزه فينثني عليه ويضربه برمحه ويصيح به « ذق عقق » ثم يشرف على المسلمين وقد اصابهم الانكسار بسوطه — وعلى شفتيه ابتسامة الظافر ، وقلبه يخفق بنشوة الانتصار ، ويصيح

فيهم صيحة قد مازجتها ضحكة الشماتة « افيكم محمد » فيعلم
انه قد سمع كلامه ، فيصيح اخرى « اعل هبل » ولم يدعه
الرسول وقد سمع منه تمجيده لهبل الذي جاء لينكس راسه ،
ويقضي على شرعته ، فيجيبه برنة خاشعة « الله اعلى واجل »
فيرد عليه « لنا العزى ، ولا عزى لكم » فيصفعه النداء الحق
« الله مولانا ، ولا مولا لكم » وكأنما ألقم حجراً فاحجم بعد
ان قال لهم « هـــذا يوم بيوم بدر والحرب سجال » ثم ولى
بزهوه وخياله وقد حسب انه قد استاصل خضراء الاسلام ورد
محمداً ودعوته على الاعقاب . وعلى ارض القتال تهاوت الاجساد
الطاهرة كتهاوي النجوم ، وخرّت كما تخر القمم ، وقد
علت عليها الزوابع الضارية . . . وها هي مطرحة على التراب
وفيها من صعدت روحه الى مقام صدق عند مليك مقتدر ومن
يأن تحت وطأة الاحتضار . . ويسأل الرسول صحبه عن احد
الميامين الابطال « من ينظر لي سعداً اهو حي أم ميت » .

وينطلق احدهم لينظر شأن سعد ، وما قد صار اليه ،
فلما جاءه وجده وقد غمرته سكرة الموت ، ولما تصعد روحه
الى باريها ، فقال له :

صفية

وكان لابي سفيان ان يفرح ، وان يحتسي كأس المسرة وان يشفي غليله بالدماء التي سفكتها سيوفه ، منتقما لضحاياه الذين اكلتهم سيوف محمد يوم بدر ، فلم تزل اشباح السادة منهم . . . الوليـــد . . . ابي جهل . . . شيبة ، تقض مضجعه ، وتصرخ فيه منادية اياه للاخذ بالثأر ، وقـد آن له اليوم ان ينشرح ويطيب خاطره ، وتخمد فورته . وقـد اخـذ بثارهم وازال عن وجهـه وصمة العار . . . فها هي الجثث تغرق بالـدماء ، انتقاماً لما كان — وفي طليعتها كان جثمان حمزه فينثني عليه ويضربه برمحـــه ويصيح به « ذق عقق » ثم يشرف على المسلمين وقـــد اصابهم الانكسار بسوطه — وعلى شفتيه ابتسامة الظافر ، وقلبـه يخفق بنشوة الانتصار ، ويصيح

— « ان رسول الله امرني ان انظر لـه أفي الاحياء انت ام في الاموات » .

ويبتسم سعد ، ويجهد نفسه على الكلام فيخرجه خافتاً بطيئاً :

— ابلغ رسول الله عني السلام وقل له ان سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله خير ما جزى نبي عن امته ، وابلغ عني قومك السلام وقل لهم ان سعداً يقول لكم انه لا عـذر لكم عند الله إن خلص الى نبيكم وفيكم عين تطرف .

ثم فاضت روحـه وفارق الحياة ، وعاد الرجل يروي ما سمعه من سعد لرسول الله ويبلغ القوم وصيته ، فاهتز الرسول وقال :

— رحم الله سعداً نصرنا حياً وميتاً .

ويرسل من صحبه من يستطلع له خبر عمه حمزة ، ويمضي ولكن دون ان يعود ، ويعجب الرسول لامره ، فيرسل خلفه علياً ، وهو الاخر يمضي ولا يعود ، فقد هده ومن قبله ماشاهداه مما حل بعم الرسول ، فمنعتهما نفساهما اللتان اضرمتا بنار المأساة التي حاقت بهذا الضرغام — ان يسيرا الى محمد فيخبراه بامره الرهيب .

ويشتد عجب الرسول لامرهما ، وحسب ان وراء ذلك أمراً فظيعاً ، فينطلق بنفسه لينقل خطاه بين الجثث والاشلاء حتى يقف على مصرع الاسد الهصور ، وقد بقر بطنه ، واستخرج كبده ، وجدع انفه واذناه بتلك الطلعة التي اشرقت بنور الاستشهاد . وتأخذه سكرة الحزن لهول الفاجعة ورزء المصاب ، فهذا عمه المقدام ، ومن حامى عنه ، وذب عن دينه بكل جهده — قد سقط ضحية المكر ، ووصلت معه انتكاسة طباع الطغاة حداً اذهل لب الرسول . لقد سقط حمزه ووجهه يطفح بالبطوله والاباء ، وها هو امام عيني الرسول قد افترش الرمل ، وتوسد حصباء الوادي ، فبكاه بما اسعفته بـــه عزيمة البكاء ، وراح يناجيه :

— لن اصاب بمثلك ، ماوقفت موقفاً قط اغيظ عليّ من هذا ، رحمة الله عليك فانك فعولاً للخيرات ، وصولاً للرحم .

ثم وقف ليصلي عليه وهو لايكاد يستمسك من فرط لوعته واساه على عمه وناصره ومفزعـه ومغيثه ، فـانتحب حتى نشق وكاد ان يغشى عليه ، ومضى يناجيه من جديد :

— يا عم رسول الله ، واسد رسول الله ، يا حمزة يا فاعل الخيرات ، يا حمزة يا كاشف الكربات ، يا حمزة يا ذابُ يا مانع عن وجه رسول الله .

ثم غطاه ببرده . . . . وهنا اقبلت صفية وقد علمت بكل الذي حدث به يد البطش على جسد أخيها الصريع لتراه وتلقي عليه النظرة الاخيرة ، ويلمحها الرسول فيخشى ان يراها قد غمرتها الآلام ، وتكنفتها الاحزان ، وادهشها المصاب ، اذ ترى اخاها وقد صرعته يد المنون ، وتوزعت اعضاؤه ، وشتت اوصاله ، فتبكي وتعول بين الجموع ، فيأمر ابنها الزبير ليردها ولكن المرأة الصابرة أبت ان ترجع دون ان ترى اخاها قبل ان يطويه الثرى ، ويضمه التراب ، فتقول له :

— ولم وقد بلغني انه مثل باخي ، وذلك في الله قليل ، فما ارضانا بما كان من ذلك ، لاحتسبن ولاصبرن .

فبلغ النبي مقالتها فامر بتركها وشأنها ، فمضت تحث خطاها الى جثمان اخيها الذي شوهته هند حتى لا يكاد يميز من بين الاشلاء ، وغدت تتأمل فيه وهو اقرب الناس اليها ، ومن احبهم لديها ، واشدهم بأساً للرسول ، واقواهم شكيمة في ذات الله ، فرأت كيف اخذت منه اللبوة الضارية مأخذها العجيب ، وكيف غسلته الدماء ، وعفرته الرمال وكيف هدت الاعاصير ذلك الطود الشامخ ، واطاح بشموخه ريب المنون وعصف المقدور ، ولكم كان جلدها عظيماً امام هذا المشهد

حين استرجعت في لوعة ، وحبست صرخة كادت تنطلق من فمها ثم عادت الى حيث اتت .

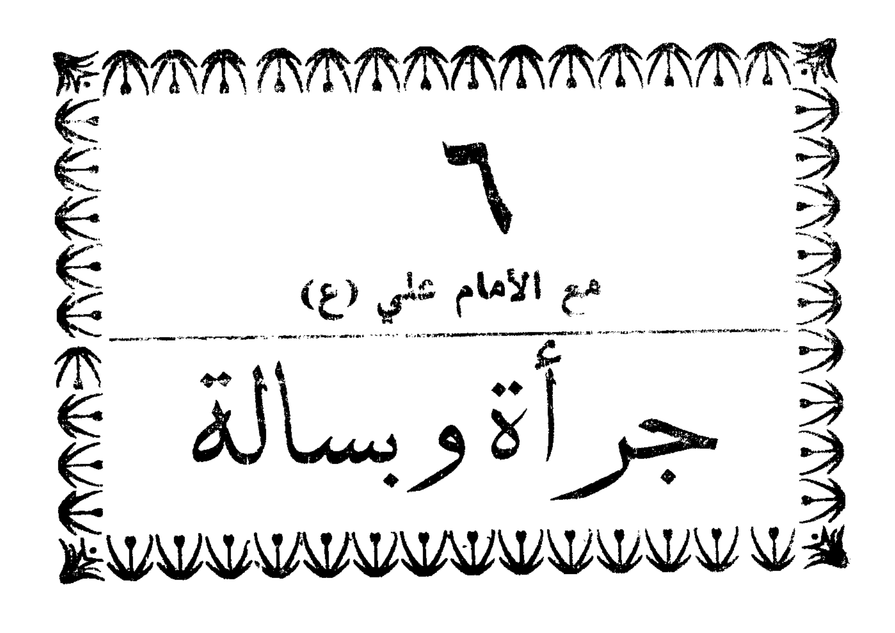
وهذه المدينة وقد وشحها الحزن في جلبابة المقيت ، وجحيم الاسى تكاد تحرقها وقد عجت بالالام والحسرات ، ودوى فيها صراخ اليتامى والثاكلات ، ولكن امراة بني دينار وقد جاءها نعي ابيها واخيها وزوجها لم يصبها الذعر ، ولم تتملكها الدهشة ، ولم تفزع في لجة الهول الى العويل كما فعلت الكثيرات ممن فجعتهن نازلة أحد ، ولكنها صاحت بالحشد وقد احاطوا بالرسول :

— اورنيه لانظر اليه .

فينفرجون عنه فتشاهده بتلك الطلعة السنية والهلة المنيرة ، واللألاء الثاقب ، فرأت فيه كل مافات منها ، فهو الاب في عين اليتيم ، والابن بعين الثاكلة ، وهو القلب العظيم الذي يضم العالم في احنانه ، ويذوب له رحمةً ولطفاً به ، ويذيب هناءه من اجل ان ينتشله من خضم العبودية والارهاق ، ويأخذ بيده الى حية التحرر والانطلاق ، وما الذي يهمها من ذويها وقد حدا بهم رسول السماء الى ساحة الشرف وميدان الحق ليزهق بهم انفاس الجاهلية ، وليطيح بتمالي الاصنام ،

ويذري فلول الشرك في رياح البسالة والجهاد ؟ وها هو وقد رفعهم الى قمم المعالي فوق هام الشمس حين اوردهم الحتوف في حضن مرضاة الله ، ودلهم سبيل الخلود ، فلتنفتح في نفسها الاكمام عن نشوة الظفر من دنيا سلامة الرسول ، ولتطلقها مدوية خالدة « كل مصابٍ بعدك جلل » .





٦

مع الإمام علي (ع)

جرأة وبسالة

واخرس القضاء المحتوم ذلك الصوت الجاهر ، وحلت الفاجعة العظمى ، ولحد العدل في زاوية من الارض ، وصعدت تلك الروح الرفيعة الى بارئها ، وخوى ذلك الهيكل العظيم ، وذبلت الشفتان اللتان ما انفرجتا الا عن الحق والحكمة وقد علتهما ابتسامة الرضا والقبول ، وتجمد الدم الطاهر في العروق ، وانتهى الامر الى من ليس له باهل ، وكانت محنة حازبة لها وقعها المرير على قلوب المؤمنين فكلحت بوجوههم الايام ، ومازج الخواطر حزن عظيم ، وعاث في القلوب جزع قاتل . انها داهية عظيمة ، وامر لا يطاق ، فقد ابعد العدل الشامل عن ساحة الحياة ، وحل مكانه الجور والطغيان ، فها هو معاوية يطوي الناس بيمينه وياخذهم الى غمرات الخضم بعيداً عن مرفأ

الامـان ليـذيقهم حر الويلات وجحيم المصائب ، ويؤمر على الطيبـين ومنهم بني همدان في العراق بسر بن ارطاه ذلك الطاغية المتوحش ، الـذي خطت يـد التاريخ صور شنائعة التي ابكت حتى الصخر ، واراقت دمع الجلمود ، فباتوا يأتون تحت وطأته الثقيلة ، وكلكل قسوتـه وغلظته ، فزخرت ايامه بجيوش الالام ، ولياليهم بقتام البلايا ، فقد اجدب مكانهم من الرحمـة والشفقة ، فاميرهم يحكم بكتاب شيطانه ، ويندفع باهوائه بعيداً عن كتاب الله ونهجه القويم .

النهار كئيب حزين ، والليل حر خانق ، فلا ومضة من بشر ، ولا قبسة" من هناء ، وقد اطبق عليهم العذاب ، وجثمت على حياتهم اثقاله . بامر ابن ابي سفيان ، وشده ابن ارطاه فهمدان اسمها يرن في اذن معاوية ، وقلبـه يمور بالحقد عليها ، وكل مـا يجره من بلاء فليس يشفي غليل حقده ولا يطفأ ظماه .

وتهب سودة بنت عمارة وهي من هي في مواقفها التي لا يزال معاوية يتذكرها ، ويجيش بالالم منها صدره ، وتحترق بالغم منها نفسه تهب تعصف في وجهه من جديد ، وتحاسبه على ظلم عامله وشراسته معهم ، فلقد كاد ان ياتي عليهم بتعسفه . .

وتمضي تحث خطاها اليه حتى اذا وصلت عرف فيها تلك المرأة التي ناصرت علياً وبعثت في نفوس ناصريه الجد والعزيمة على الفتك بابن ابى سفيان واتباعه ، وفيما هي تهم ان تكلمه في شأنه الذي جاءت له يصيح صارخاً في وجهها :

— الست القائلة يوم صفين :

شمر كفعل ابيك يا ابن عمارة
يوم الطعان وملتقى الاقران

وانصر علياً والحسين ورهطه
واقصد لهند وابنها بهوان

إن الامام اخا النبي محمد
علم الهدى ومنارة الايمان

فقد الجيوش وسر امام لوائه
قدماً بابيض صارم وسنان

فتاخذها الحيرة حيناً ، فقد وضعها معاوية امام امر عظيم كان لها عليه ، ولكنها تستمسك بعزيمة ايمانها ، وقوة ولائها فتقابل ريحه العاتيه بجنانها الراسخ المتين ، وتجيبه بنبرات لم يخالطها شيء من الخوف .

— اي والله مـا مثلي من رغب عن الحق ، واعتـذر بالكذب .

— فما حملك على ذلك ؟

— حب علي واتباع الحق .

— فوالله ما ارى عليك من اثر علي شيئاً .

وودت سوده لو تقطع الامر من بـدايته ، وتزهق انفاسه حتى تتفرغ لما جاءت به اليه .

— يـا امير المؤمنين ، مات الراس ، وبتر الذنب ، فـدع عنك تذكار ما نسي ، واعادة مامضى .

ولـكن معاوية وقد غمرت باله تلك المواقف الرائعة من بطولة همدان ، وفي الطليعة منهم اخوها المجاهد مالك بن عمارة الاشتر ، لم يقطع راس افعى الحديث ، ويطفأ ناره ، ويرد عليها بصوت ناكس ونبرات متقطعه .

— هيهات ما مثل مقام اخيك ينسى ، وما لقيت من احد كما لقيته من قومك واخيك .

فلم يزدها قوله الا صلابـة ، ولم تركع امامه في محراب الاعتذار ، وردت بصلابة وصرامة .

— صدق فوك لم يكن اخي ذميم المقام ، ولاخفي المكان ، كان والله كقول الخنساء :

وان صخراً لتأتم الهداة بـه

كأنـه علم في راسه نـار

ويجيبها ، وفورة الالم تسكته عن التوبيخ :

— صدقت كان كذلك .

ومرةً اخرى تجهد سودة نفسها لتسد بـاب العناء الـذي يتدفق بالمتاعب والالام على معاوية ، الذي جاءت اليه تستجير به ممن امره على ذويها ، فتستدره العطف بأن يقطع الحديث وتقول له :

— مات الرأس ، وبتر الذنب ، وبالله اسأل امير المؤمنين اعفائي عما استعفيت منه .

— قد فعلت فما حاجتك ؟

فتشكو اليه جور عامله وطغيانه :

— انك اصبحت للناس سيداً ، ولامرهم متقلـداً ، والله سائلك من امرنا مـا افترض عليك من حقنا ، ولا يزال يقـدم

علينا من ينوه بعزك ، ويبطش بسلطانك ، ويحصدنا حصدنا حصد السنبل ويدوسنا دوس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسلبنا الجليلة هذا بسر بن ارطأة قدم علينا من قبلك ، فقتل رجالي واخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة فاما عزلته عنا فشكرناك ، واما لا فعرفناك .

وبهذا الجنان الثابت ، والروح الشامخة ، والعزم الراسخ تخوض معه معركة الحديث بلا خوف ، وبلا ادنى رهبة ، ويكاد معاوية ان يندك تحت ثقل كلامها ، ويأخذه نظير الافكل ، وشبيه سكرة المخنون امامها وهي المرأه الضعيفة ، والتي ارته بالامس المساءه ، وهي تحت جنود الايمان ليقصموا ظهر الشرك الذي استقام من جديد في شخص معاويه وهي اليوم تحت سلطانه تهدده وتتوعده .

— اتهدديني بقومك لقد هممت ان احملك على قتب اشرس ، فاردك اليه ينفذ فيك حكمه .

فتطرق باكية ، وقد ارتسمت في ذهنها صورة من امس ، وقد خلدها في نفسها اشراقها وصفاؤها ، وتود ان تكشفها امام هذا الذي راح يهددها بظلمه فتفتح الباب الى مرامها بقولها :

صلى الاله على جسم تضمنه
قبر فاصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً
فصار بالحق والايمان مقرونا

— ومن ذاك ؟

فتجيبه برنة خاشعة :

— علي بن ابي طالب .

— وما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟

— قدمت عليه في رجل ولاه صدقتنا فكان بيني وبينه ما بين الغث والسمين ، فاتيت علياً عليه السلام لاشكو اليه ماصنع فوجدته قائماً يصلي فلما نظر الي انفتل من صلاته ثم قال لي برأفة وتعطف :

— ألك حاجة ؟

فاخبرته الخبر فبكى ثم قال :

— اللهم انك انت الشاهد علي وعليهم ، اني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك ،

ثم اخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الجراب فكتب فيها :

— بسم الله الرحمن الرحيم ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فاوفوا الكيل والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس اشياءهم ، ولا تعثوا في الارض مفسدين ، بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما انا عليكم بحفيظ ، اذا قرأت كتابي فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام .

اعاد

وكأنما اعادة كلامها الى معاوية بعض رشده فود ان ينصفها وقد افحمته حجتها وقهرته بكلامها فصاح بغلمانه :

— اكتبوا لها بالانصاف والعدل لها .

فتنبري اليه قائلة وقد آلمها ان يخصها معاوية بعطائه :

— ألي خاصة ام لقومي عامة ؟

— وما انت وغيرك ؟

— هي والله اذن الفحشاء واللؤم ، ان لم يكن عدلاً شاملاً والا فانا كسائر قومي .

وفي نهاية المطاف ، وقد رأى معاوية شدة الولاء وعظم

الاخلاص من بني همدان رجالاً ونساءً لاماصهم حق في احلك الساعات فيكشف لها هذه الحقيقة التى اعتملت في قلبه :

— هيهات لمتظكم ابن ابي طالب الجرأة وغركم بقوله :

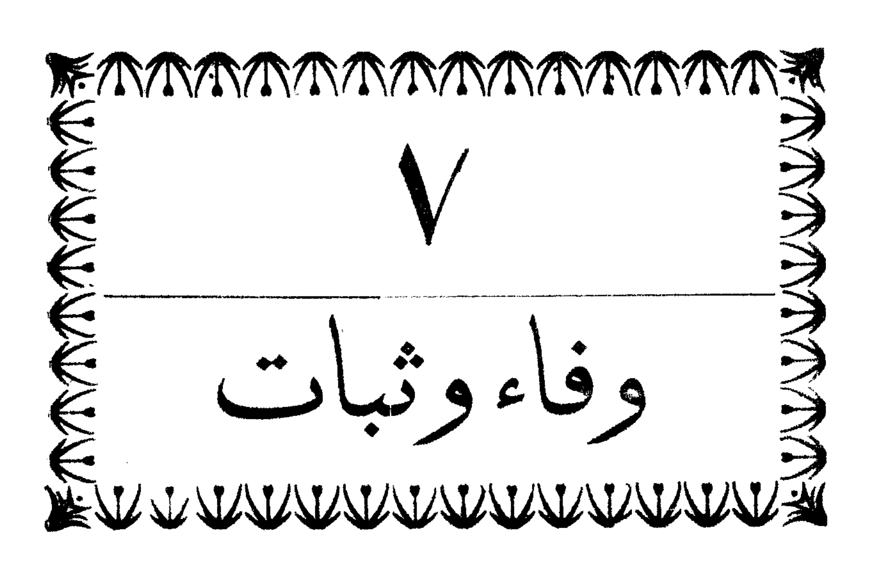
فلو كنت بواباً على باب جنة

لقلت لهمدان ادخلي بسلام

وتؤوب فتاة همدان ، وقد نالت مارامت ، بعد ان تركت على جبين معاوية وصمة الهوان ، واحاطته بشراك المذلة .






٧
وفاء وثبات



بات يقلب طرفه في صفحات الايام السالفة ونفسه تتفجر غيظاً ، وقلبه يتميز حقداً . . . ايام صفين يمرون على مخيلته فيتصفحن واحدة بعد اخرى ، ويقلب مشاهدها مشهداً بعد مشهد ، ثم يعود الى نفسه فيراها قد اعتلت العرش الذي كان يحلم به ابوه ثم هو من بعده ، وقد انجلت عن ناظريه سبحات النور التي كانت تكدر صفو جاهليته ، وسكنت الاصوات التي كانت تدوي في مسمعه رهيبة تقيله ، وأمن سطوة الاخيار بعدما تشعبتهم صروف الدهر ، ثم يعود وكرةً اخرى الى امس حيث تلتقي جحافله التائهة بجحافل الخير في ارض صفين وهو يتشوف الى ادراك مغزى خذلانه وانتكاسته في ذلك اليوم ، وعلم

ثقيلة

بعد لأيٍ من التفكير أن حنكة الامام وائتلاف كلمة صحبة الاخيار قد كانت مدعى هزيمته ورده كاسفاً مخذولاً .

وتلوح في ذهنه « الزرقاء » بنت عدي وهي تصرخ في الجموع الثائرة على ضلالة ابن ابي سفيان ، وتحثهم على ردعه وهدم حصونه ، ومن خلفها لفيف من النساء يهزج للابطال ويثير فيهم عزيمة الانطلاق .

وها هو وقد سكنت صرخات الحق ، وهدأت حركاته ، وانبرت اصوات الباطل تصرخ في الآفاق باسم المجون والتهتك ، وعادت له دنيا احلامه بعدما كادت ان تموت ، واينعت له الثمار بعد جفافها ، فليضرب بيده على من يشاء ممن ناوؤه وناصروا اعدائه ، وليقس على اهل العراق فانهم هم منطلق الثورة عليه ، وانه ليشتهي في حينه هذا ان يستدعي تلك المرأة التي اخذت من راحته شيئاً كثيراً ، ويذيقها وبال امرها ، فيخفق قلبه بين جوانحه ، وتدور عيناه من غمه كانه من الموت في غمره ، فيرسل الى عامله في الكوفة ان يبعث اليه بضالة حقده وانتقامه ، وعجلان ما يلبى مرامه ، وتاتيه الزرقاء ربيبة الفصاحة ، وغذية البلاغة ، وفي قلبها حسرة ، وفي عينيها دمعه وفي ضميرها عذاب من غلبة الباطل وارتفاع اعلامه وانتكاس

الهداية وتمزق اعلامها ، وتدخل عليه وقد تفشى برداء الطغاة ، وولى يتخايل على عرشه ، وتكاد تنفجر بالبكاء اسىً ولوعة ، ولولا ان رأت نفسها امام عدو شامت لفعلت ، وأطفأت ضرام النار التي اججها مشهد ابن الطلقاء وفي يده زمام الامور ، فيضحك في وجهها الذي بدت عليه علائم المأساة ضحكة المنتصر الشامت ، ويسألها :

— هل تعلمين لم بعثت اليك ؟

— سبحان الله ، وانى لي بعلم مالم اعلم !! ، وهل يعلم ما في القلوب الا الله .

وبلمحة خاطفة من ذهنه في دنيا صفين حيث هي تؤلب الرجال على رجاله ، وتثير فيهم نخوة الايمان ، فالتهب بجحيم غيظه فقال لها :

— بعثت اليك أن أسألك الست راكبة الجمل الاحمر يوم صفين بين الصفين توقدين الحرب ، وتحرضين على القتال ، فما حملك على ذلك ؟

ولتجيبه بنبرة فيها خضوع تتصنعه :

— يا امير المؤمنين انه قد مات الراس ، وبتر الذنب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر ابصر ، والامر يحدث بعد الامر .

— صدقت فهل تحفظين كلامك ؟

— ما احفظه .

فهل تراها تعيد صورة الامس التي حزت في نفسه فتعرض نفسها وقومها لمخالب بطشه وكيده ، ولكنه ولعظم ما كان كلامها ياخذ من راحته وقد طبع في خاطره ولم يزل حتى اليوم ولن يزول حتى يزهق انفاسه حتفه — يرد عليها :

— ولكني والله احفظه ، لله ابوك لقد سمعتك تقولين : ايها الناس انكم في فتنه غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن المحجة ، فيالها من فتنة عمياء صماء ، تسمع لنا عقها ، ولا تسلس لقائدها ، ان المصباح لا يضيء في الشمس ، وان الكواكب لا تنير مع القمر ، وان البغل لا يسبق الفرس ، وان الزف لا يوازن الحجر ، ولا يقطع الحديد الا الحديد ، الا من استرشدنا ارشدناه ، ومن استخبرنا اخبرناه ، ان الحق كان يطلب ضالته فاصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والانصار فكان قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن احد فيقول كيف العدل وانى ؟ ، ليقضي الله امراً كان مفعولا . . . . الا ان خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء والصبر خير عواقب الامور ،

ايهاً الى الحرب غير ناكصين ولا متقاعسين ، فهذا يوم له ما بعده .

وما ان انتهى من كلامها حتى تكشفت عليه اثقال الهموم ، واطباق الآلام حتى انه ليكاد يخرق الارض وينطوي فيها ليغمض عين باله والى الابد عن صورة صفين وهي تزدلف له كل حين فيرن فيها ما يذهله ويذهب بهنائه . . . ويصر على اسنانه ويوجه اليها نظرة ملتهبة وكلمة صارمة :

— والله يازرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه .

وكانت بشارة عظيمة انطلقت من فم اعدائها فانزاحت همومها ، وأنجابت حسراتها وقد حدثتها نفسها انها وقفت يوماً موقفاً فيه مرضاة لله ومسخطة للشيطان وتلتفت اليه والبسمة الغامرة تغرق على شفتيها وتقول :

— احسن الله بشارتك ، وادام سلامتك ، مثلك من بشر بخير وسر جليسه .

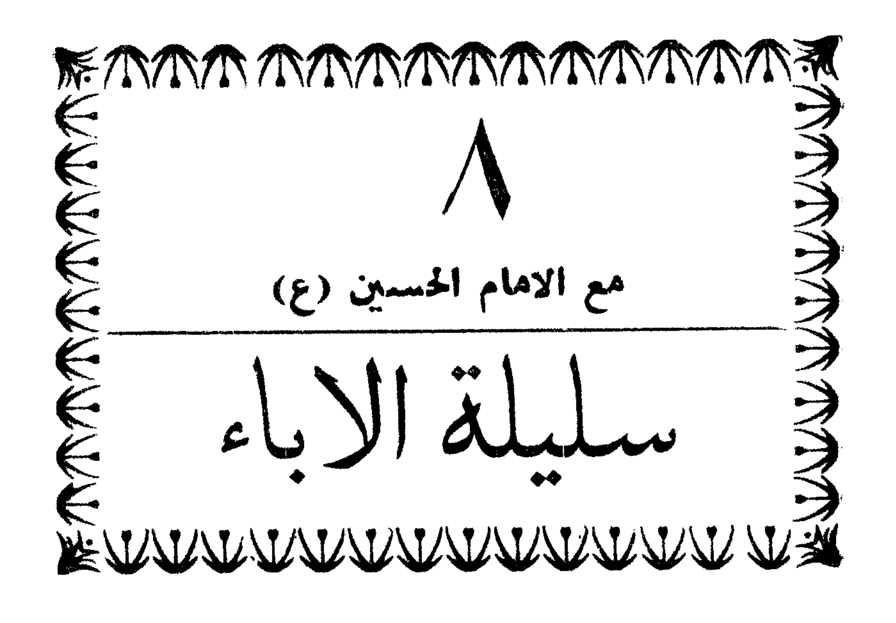
— وقد سرك ذلك ؟

فتجيبه صادقة القول لايخالطها شوب مخافة ولايمازج قولها عيب افتعال :

— نعم والله لقد سرني قولك ، وانى لي بتصديق الفعل ؟

ويتدهش معاوية من هذا الوفاء الذي انطوى عليه قلب هــذه المرأة لمن احبته ، ووضعته في نفسها في ارفع مكان ، وجاهدت بين يديه جهاد الابرار فقال لها وقد تهيأت للخروج :

— والله لوفاؤكم له بعد موته احب اليّ من حبكم لـه في حياته .


٨
مع الامام الحسين (ع)
سليلة الاباء



وصال الـدهر صيال السبع العقور ، وطفلت شمس الحق للمغيب ، وبقيت بعـدها تلك الشعل الوهاجـة تقض مضاجع الليالي ، وتكدر صفو الظلماء ، فهي واياها في حرب ضروس ، وابت الانواء الا ان تزمجر في وجهها ، وتكشف عليها الغمام لتحجبها عن وجـه الحياء ، بل لتخنقها وتزهق انفاسها فلا تعود ساطعة تنير الـدرب للسائرين . . . وانطفأت شعلة الحسن في دهر انقلبت فيه مقاييس الناس ، حيث اعاد معاوية شرعة الشرك والالحاد والرق والاستعباد ، ولبست الايام ثوباً غير ثوب الاسلام ثوباً ابلاه محمد الامين وانجابت دهماء معاوية وبقيت بعده ظلماته التي اسلس لها زمام القوادة ، ووضع بين يـديها زمام الامور ، بعدما كظم كل ريح تهب لتطيح باركان ملكه ، فلقـد طوى

الامـة تحت جناحيه وطار بها الى دنيا التعاسة والشقاء فهملها الهوان ، ودب فيها الخواء فامسى اهلها ذئاباً ، وامراؤها سباعاً ، وفقراؤها امواتا وفاض فيها الكـذب ، وغار الصدق ، وسكت الناس على الجور ، وصموا وعموا واستسلموا امـام تيار الدهاء العصيب ، وهـذا يزيد في نزقه يمتلي متن الحياة ، ويهيمن على رقاب المسلمين ويجعلهم طوع شهواتـه واهوائه ، بعيداً عن نهج الحق وشرعة السماء فكان لابد من مارد ينفخ في الهيكل الذاوي من روحه الجبارة ليعيده حياً من جديـد وليعلنها صرخة تظل تدمدم في الاجواء تعصف بالظالمين وتوقض المظلومين من سباتهم العميق حين تصرخ باسم الحق وتنادي يالثارات الاسلام . وهذا هو ابن الزهراء في مدينة جـده العظيم يرى الامور تسير على غير ما كان يرجوه وماعقدت عليه صفقة الصلح في ايام الحسن ، ويرى الامر قـد استتب ليزيد الطائش ، والصبي الواهي ، فهل يا ترى سيسكت ويـــدع الامر هملاً ، والقطيع مقسماً ؟ وهو ينظر الداء يعبث في جسم الحياة التي فاحت بها روح الاسلام ، ام يثأر للحق الصريح ، والطريق المنهوذ ؟ فيكون قربانا على مذبح الشهادة ، وفداء لنصرة الدين وهو ابن رسول الله وكافل الامـة من بعد اخيه ، وهل يدع الجهود المضنيه التي بذلتها النفوس الطيبة من قبله تـذهب ادراج الرياح من فعال الصبية

واعمال الشياطين . . . ويكتمل نضيج الثورة ، فها هو ابن معاوية يطلب منه البيعة ، ويساومه على الاستخذاء امام سلطان الشيطان ، وهو ابن بضعة الرسول ، وابن وزيره ، ويأبى الله له ذلك ، وشيمته التي صبها فيه سحائب الايمان ، فليكن هو المنار في الليل الحالك ، والموت الذي يقطع انفاس الغواية . .

وها هو وذكريات الامس تمر على خاطره واحدة بعد اخرى ، هذا جده يرفع استار الغيب ويعلنها مرة كالصاب :

— ان هذا ولدي سيقتل بشط الفرات .

وها هو صوت ابيه لازالت تردده ديار كربلاء لما مرّ بها :

— صبراً ابا عبد الله .

وان الحسين لعلى علم بالغدر الكامن في نفوس اهل الكوفة وهم يكاتبونه ويعطونه النصيحة والبيعة ، وانه لا يمكنه ان ينسى اباه وقد ازعجته الخطوب منهم عن ديار امنه وراحته فهو يقول لهم :

— منيت منكم بثلاث واثنتين : صمٌ ذوو اسماع ، وبكمٌ ذوو كلام ، وعميٌ ذوو ابصار ، لا احرار صدق عند اللقاء ، ولا اخوان ثقة عند البلاء .

وتطل امامه موتتان على درب عزمه على بذل الروح من اجل الاسلام الطريد : اما موتة المدينة او مكه فتنطفأ شعلته ويدفن معها صوته ونداؤه ، واما موته على عين الشمس ، وفي مرأى الناظرين هناك في العراق حيث يقطن من واعدوه بالنصرة وعاهدوه على النصيحة والفداء . . . ويشد رحاله صوب العراق حاملاً مع بعض رجاله نسوته واطفاله فهو آبه بما سيكون ، ولا بالصراخ الذي دوى حوله بشأن اخذه للنساء والاطفال ، فيلتفت للجموع اللائمة ، ويقول لهم :

— كأني باوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء ، فيملأن مني اكراشاً جوفاً ، واجربة سغباً لامحيص عن يوم خط بالقلم .

ويعلنها بشان النساء :

— لقد شاء الله ان يراهن سبايا .

ويترك كلامه هذا ملء الاسماع ، ويمضي يغذ السير الى مكة حيث بيت الله الحرام ، ثم يتجه تلقاء العراق وهو يردد صرخات القدر :

— القوم يسيرون والمنايا تسير بهم .

وبلغ نهايته ، ووصل الى غايته ، وبذل الاهل والاصحاب ونفسه الزكية من اجل عقيدته تاركاً خلفه بيرق النصر في يد

العقيلة لتفتح به كل الحصون ، ولتوصل صيحة الحق التي هدرت من فمه الى كل الاسماع فلقد كادت ان تخنقها المكائد وتدفنها فليس لها هـــدير ، فمضت زينب تحمل ثقل الثورة ودوي البركان الـذي تفجر في قلب الحسين لتوقض بهما من غفا تحت وطأة الـكابوس المقيت ، ولتكشف عن اعين الناظرين ذلك الضباب الكثيف الذي شوه ثورة الحسين ، واضفى على الحاكمين صبغة الحق وعلائم الايمان . . ولتكن زينب البطلـه نور تلك الشمس التي انفجرت في لجة الاظلام ، وماء ذلك الغيث الذي اندفع من مآقي الحسين ليسقي الارض الضاحية ، وقبسه تلك الشعلة ، وصدى ذلك الصوت ، ورجع تلك الصيحة وقد رأت عين الـدهر مـا اذهل لبه منها ، هي المرأة الرهيفة الرقيقة ، تقف في غمار المأساة كانها طود لا تحركه عواصفها ، فهي تنظر الى بنيها وذويها وخيرة اصحاب اخيها وهم اشلاء قطعتها السيوف ومزقتها الحراب فعطرت الـتراب بدمائها الطاهرة لترتفع بعد حين كالاقمار لتضيء مسالك الحياه للخابطين في ظلمة التيه والحيرة . . . وتقف تهزأ بالحمام وتسخر بالنائبات كأنها الراسيات في وجه الزعـازع ، فهي تجمع الاطفال ، وتعزي الثكالى ، وتواسي السقيم ، وتأسو جراح المحروبـين ، وتـذب عنهم كيد الاعـداء بما وسعها حولها وبما وهبته اياها قواها ،

وارخى الليل سدوله على وجه المكان الذي تحمل وعلى مضض ثقل المأساة التي أقيمت على ثراه . . . ومضى القمر وفي غمرة سنائه الخاشع الحزين يبدد بعض ظلمة المكان فتنتقل من رحاب الخشوع في دنيا الصلاة التي أبت الا ان تعلي صوتها حتى في غمار الكربات وخضم البلايا . . . وتنطلق من باب الخيمة الى مصرع ابي الضيم ، وقربان الرسالة ، وضحية الاباء فتنقل خطاها على الارض الدامية من على يمينها الاعداء وقد اخذتهم سكرة الرقاد ، وامامها تهتز اشجار النخيل ، وتتهاوى كأنها اشباح ، وتقترب الحوراء من جسم الحسين وقلبها يكاد يقفز من بين جوانحها ، ويهدها اعصار الحيرة الخانق فتكبت صرخة هادرة اوشكت ان تنطلق من حشاها اللاهب اذ تلمح — وبعين لم ينفذ نورها ليكشف ظلمة المكان التي لم يكشفها ضياء القمر — بعض خطوط الفاجعة التي حلت باخيها ، فقد حز راسه ، ومزقت جسمه السيوف ، واخذت منه السهام مواضعها ، ورضت صدره سنابك الخيل وفوق ذلك فقد سلب ما قد ستره من ثياب . . . وتنحني عليه بلهفة روح شاعره ، وآهة احساس ضارم ، وزفرة شعور دافق ، وحسرة ضمير حي ، واسى نفس مؤمنة عظم فيها المصاب وحز فيها الكرب الذي عصفت رياحه في ديار الامامة ، منطلق النور ، ومنبع الخير ومحط لطف السماء

وتمد العقيلة يديها وقد اخذتهما هزة الحزن ، وارجفتهما رعشة الالم الفادح لتضمهما تحت الجثمان ، وترمق ببصرهاالسماء وتند من فمها الطاهر عبقـة من فيض الخلود ، وتناجي ربها في نجاء حالم وتتضرع اليه فتقول :

— اللهم تقبل منا هذا القربان .

وتعود سليلة الاباء الى المخيم الـذي اظل حرائر الرسول في ذلك الليل الحازب المرهب المقفر من الاهل والخـلان ، وكلهم صرعى مطرحون ، تعود الى صلاتها ، وتهجـدها ، والى حياطتها الى من تحت ظلها من امرأة ثاكلـة ، او فتاة نادبة ، او صبية صارخـة ، او عليل متضور ؛ وتمضي ليلتها مسهدة تسامر الهم العاصف والاذى القاصف اللـذين حلا بساحتها الطهور . .

مضت الليلة ثقيلة ً شديـدة ً ، تزفر بالاذى وتمور بالعذاب ، ليس لابنـة الزهراء فيها ، ولا لمن يلوذ بكنفها من عادية الظالمين الا الله ، والعزم العظيم في نفسها على ان تسير بالثورة الى غايتها — ينبعث فيها من عظيم جلـدها ووفائها ، ويفيض منه شيئاً —

مرأى هذه الاجساد الخاوية التي كانت حية ناهضة ، وقـد تهاوت بسيف الجور كما تتهاوى القمم ، وتساقط بريح البغي كما تتسـاقط البراعم الباسمة في روض بهيج . .

بهاس أسى الفاجعة في نفسها ، او صولة الشوق الى اخـذ الثار .

ورفعت الشمس قناعها ، واسفرت عن وجه متجهم كئيب يجلله الحزن وتغشيه المرارة ، وقـد امضّ به الم الحادث الرهيب ، طلعت عليهم وليتها لم تشرق ، ومضى القوم الـذين شبت بهم نار غيهم فاحرقتهم حين خاضوا غمار الفتن ، وتركوا مسالك الرشد ، فهم لا يبصرون انوار الهـدى ، ولا مصابيح الصلاح ، ورحلوا عن ارض الفاجعـة بعـد ان قضوا الليل عليها ، يتجافون عن مضاجعهم ، وقـد أرقهم ثقل ذلك الخطب واشباحه ، لم تصرفهما عنهم نشوة الظفر الخاسر ، ولا بهجة النصر العاثر وانهم ليحاولون جهـدهم ان يزيلوا عن نواظرهم هذه السدف المصوبة من المصاب والضنى وانى لها ان تزول ؟ ويجيء دور العقيلة فهي بالمعركـة فارس مقدام ، ولها النصف نصيباً بهذا الكفاح العظيم ان عليها ان تثبت الوطأة في هـذه المزالق ، وان تشمر عن ساعد متين ، وان تحمل قلباً كان لابيها في غمار صولاته فتسير بـه تقارع سمر الرماح وبيض الصفاح وشديد الـدواهي فالثورة لم تكتمل ، وما تم نسجها ، وسوف

تندثر وتطوى في صفحة النسيان ان لم تتحمل ما عليها من العبأ العظيم .

لابد لزينب ان تعصف في الركام ، وان تقف طوداً شامخاً ، وان تنادي بثار هـذا الدين المحتضر ، وتقف عزماً من الايمان ثاقباً في وجـه هولاء الـذين ازدحموا على الباطل ، وائتلفوا على الحرام ، ولبسوا لباس الـذل والاستكانة فقد باعوا الضمائر بثمن بخس ، وكسروا طوق الحرمات التي وضعها الله في خليقته ، فهم كالانعام بل هم اضل سبيلاً . . .

ويقطع الحـادي الطريق الى ارض الكوفة والسبايا على اقتاب الجمال بدون غطاء ولا وطاء ، فاذا الناس قـد وقفوا على جوانب الطرقات ينظرون وقـد اخذتهم الرجفة ، وسيطر عليهم الهلع ، ودبت فيهم الحيرة ، واخرست السنتهم الفاجعة فكانهم من الموت في سكره ، فهم على يقين بباطلهم الذي اجترحوه في جنب هذا الركب الكريم ، لكنها الرميـة اصابت ولم تخطأ ، لقد استبدلوا الصافي بالآجن ، والحلو بالعلقم ، والعـذب بالزعاق ، والـدين بالنفاق ، والسلام بالحرب ، فاتوا به بائقة ليس لها نظير ، وكان الندم مريراً فهم الساعة يودون لو تسوى بهم الارض مما الحقوه بانفسهم ، وسيظل وصمة لاتمحوها الايام ،

ولا تقدر على تصريفها قرون متطاولة ، وليس في وسع الحدثان تغيير ما حصل ، فانهم خبطوا حتى كانهم بهائم سائمه ، ازدحموا على الحطام حيث ازبـــد عليهم تيار الفتنة فطواهم بيمينه ، فارجف منهم القلوب ، وقصف منهم الابـدان وعاث في قلوبهم جزع قاتل ، الكل منهم دامع العين ، لادم الوجه قـد اكتحل بالهم ، وعصف بـه الغم عصف الريح بالهشيم والعقيلة تنظر الى هؤلاء الذي ماروا في حيرتهم . وتاهوا في قفار ضناهم حتى اسودت باعينهم الـدنيا ، فهم في ظلام عيش مرير ، وتشخص اليهم ببصرها النافذ ، وتومأ اليهم ان اسكتوا لتقول قولتها وتنفس عما يجيش بصدرها .

الطود الشامخ

وتكلم ذلك العود الناظر ، والبرعم الحالم فقال :

— اما بعد يا اهل الكوفـة ، يـا اهل الختل والغدر ، اتبكون فلا رقأت الدمعة ، ولا هدأت الرنة ، انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ، تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ، الا وهل فيـكم الا الصلف النطف ، والصـدر الشنف ، وملق الاماء وغمز الاعـداء ، او كمرعى على دمنة ، او كفضة على ملحودة ، الاساء ماقدمت لكم انفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب انتم خالدون ، اتبكون وتنتحبون ، اي

والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ، وان ترحضوها بغسل بعدها ابـداً ، وانى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرسالـة وسيد شباب اهل الجنة ، وملاذ خيرتكم ، ومفزع نازلتكم ، ومنار حجتكم ، ومـدرة سنتكم ، الاساء ما تزورن ، وبعداً لم وسحقاً فلقد خاب السعي ، وتبت الايـدي ، وخسـرت الصفقه ، وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة .

ارايت كيف كانت تفرغ عن لسان ابيها ، فلتحثو التراب في وجوههم ، ولتفرق وجوههم بالسواد ، ولتجعلهم يموج بعضهم في بعض حيارى ذاهلـين ، فلقد أرتهم عظيم جرمهم ، فكانهم في يوم المعاد وكـل قـد حمل وزره على ظهره في ساحة الحساب ، ولقـد اسمعتهم من التأنيب والتقريع مـا اذهل لب الـدهر قبل البابهم ببلاغة جعلتهم في سكرة المحتضر ، وثوب من التخويف صيرهم غرق في خضم عـذاب شديد ، ثم تمضي ليضمها مجلس ابن زياد لتعصرها الرياح ، ولتحدو بها الامواج العاتية الى لجج البحر الزاخر من الايلام ، ولتطيح ببقاياها نضرتها الزعازع الشديـدة ، والرزايا العظيمة ، فتجلس وهي اكرم الناس منبتاً ، واشرفهم حسباً ، واعلاهم مكانـة ، مطرقة

ودخلنا امرأة ... حزينة

كاسفة ذليلة في ذلك المجلس الدميم امام هذا الدعي المرتدي لباس الامارة ، المستعلي حتى فوق من هم اسمى من النجم القصي ، ويصوب نظره اليها وقد علت وجهه الشماتة ، وبسمة المنتصر الساخر فيسال :

— من هذه المتنكرة ؟

فلا ترد عليه ازدراءً وينبري له من يجيبه :

— هذه زينب العقيلة .

فينطلق من معين خبثه ، وظلام طويته ، ودناءة سجاياه فيقول لها :

— الحمد لله الذي فضحكم ، واكذب احدوثتكم .

وترد عليه برفعة بادية ، وشموخ ظاهر :

— الحمد لله الذي اكرمنا بنبيه ، وطهرنا من الرجس تطهيراً انما يفتضح الفاسق ، ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا .

فيرد عليها ابن زياد :

— كيف رايت فعل الله باهل بيتك ؟

وترد عليه بتجلد وصبر أخـــذة بلبه الى دنيا الحيرة والذهول :

— ما رأيت الا جميلا ، هؤلاء قوم برزوا الى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك امك يا ابن مرجانه .

فاستشاط الاحمق غضباً وازبـــد وهمَّ بها فاخـذه الناس ومنعوه عن ان يفعل .

فالتفت اليها قائلا :

— لقـد شفى قلبي من طاغيتك والعصاة المردة من اهل بيتك .

فتضنيها الكلمة ، وتاخذها غمرة الالم وتقول :

— لعمري لقـد قتلت كهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي ، فان كان هذا شفاؤك فقد اشتفيت .

فقال ابن زياد دهشاً من جلال منطقها :

— هذه سجاعة ، ولعمري لقد كان ابوك شاعراً سجاعاً .

ويمد بصره الى الأسارى بـين يـديه ، ويقر بصره عند عليل السبايا فتىً مهرق الوجه ، نحيل القوام ، مدمل الانحاء بما هو فيه من الم الجامعة وثقل الحـديد ، ويبادره بالسؤال بهرنة المتصلف المنتصر :

— ما اسمك ؟

— انا علي بن الحسين .

اوليس قد قتل الله علياً ؟

وتابى سجية الباس والاقدام الا ان تبرز في هذا الاسير الكسير من دوحة البيت الهاشمي :

— كان لي اخاً يسمى علياً ، قتله الناس .

فغضب ابن زياد من كلامه ، وكيف يعارضه بنسبة القتل الى الناس دون الله .

— بل الله قتله .

— الله يتوفى الانفس حين موتها ، وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله .

وتجمح في نفس الغوى شياطين الشر ، وتحضه على العدوان ، وتهون عنده كبيرة الجرائم ، وعظيمة الدواهي كاللائي سلفن من امثالها ، فيامر بسفك دمه وكأنه ما ارتوى ولا اتخم .

وتبصر العقيلة عزمة الفتك عند ابن مرجانة تهم بهقية النور التي ظلت تشهد دربها ، وتبعث فيها الحياة ، والرضا بها ، فتنتفض كالملسوع وتعتنقه صائحة بوجه الطاغية :

— حسبك يابن زياد من دمائنا ما سفكت ، وهل ابقيت احداً غير هذا ؟ فان اردت قتله فاقتلني معه . . .

لقد جادت بروحها دونه لتحفظ بقية العترة وضياء الامة فصانت هذا الدم الغالي ، وردت الكيد عن هذه العملة النيرة . . .

ويسير حادي الضيم بعيالات الرسول الى حيث ابن معاوية هناك في الشام تلك البلدة النائية عن كربلاء التي لا تعلم من امر هذا المسير شيئاً ، فاوهم سادة الضلال فيها قومهم بان هذا عيال خارجي ظهر عليهم فايدهم الله ، ونصرهم عليه لقد اسدل يزيد نقاباً من التستر على وجه الحقيقة الناصعة ، ولقد كان للضباب هذا ان يزول لاول شعاع يصل اليه من عين الشمس ، وان يتبدد لاول اشراقة منها ويمر الموكب الحزين يسير الهوينا والجماهير من حوله مابين مسرور لحاله او موجع لمرآه ليقين من بطلان خاذليه ، او سجية الرحمة . . .

ويضم العقيلة مجلس يزيد ، ويضع رأس ابن الزهراء بين يديه ويروح ينكث ثناياه بمخصرته في غمار نشوته يطرق ابواب الغرور ، ويخوض بحار الهذيان في سكرته وتمر امام عينه مشاهد أمسه فتأخذه مطايا خطاياه وزوامل آثامه تسرح به في مرابع الظفر ويحلق بعيداً عن هذا المجلس المكتظ بالناس ، ونسى نفسه ، ونسى انه في محنة طاغية وقد كان عليه ان يتيقظ ، وان يتصرف بحكمة وسداد ، وان لايتخبط في هذه

الحماقة البادية والطيش الظاهر ، فيستر هذا الموكب الالهي عن اعين الناس والنظاره وان يكبت الصيحة قبل انطلاقها ، ولكنه كان صبياً اجدر بـه ان يلهو مع الصبيان لا ان يتربع على عرش الحكم وزعامة المسلمين ، ويعانق اشباح ضحاياه المسفوكة بيد ابي صاحب هـــذا الرأس ويقولها منتشياً جذلان لا يأبـه بما بعدها :

ليت اشياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الاسل

لاهلوا واستهلوا فرحاً

ثم قالوا يا يزيد لا تشل

لست من خندف ان لم انتقم

من بني أحمد ما كان فعل

لعبت هاشم بالملك فلا

خبر جاء ولا وحي نزل

انطلق ليمزق حجاباً وضعه ، وستراً غطى به وجه ظلامه ، وبرقعاً لفع به جحوده انطلق ليبدي مايكنه صدره ، ويعلن عن كفره ومروقـه ، فكان لزينب ان تتكلم وتحرق دنيا تهوقه وفرحته بنار الخزي والمهانة ، ولترى الناس ذلك القلب الـدفين

الذي يعيش به ابن الطاغوت ولتهدي لهم وجها ستره بوجه زائف قد افصح عنه هذيانه ، وكان من كلامها الذي كان فيه فيض من عزمها وصلابة عودها وباس أيمانها ورسوخ علمها وو عيها وهي تحت ظله ملكاً متجبراً وسلطاناً باغياً .

— امن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك واماءك ، وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن ، وابديت وجوههن ، تحدو بهن الاعداء من بلد الى بلد ، ويستشرفهن اهل المناهل والمناقل ، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والدني والشريف ليس معهن من رجالهن ولي ، ولا من حماتهن حمي .

ويؤلم هـذه البطلة الشامخة ان يضمها ويزيد مجلس فيراها فيه مجالاً للاذلال ، ويسمع منها صيحة التفجع والتقريع ، وعداء المهزوم بادىء النظر وهو في عينها لا يعـدل شسع نعله فتقول :

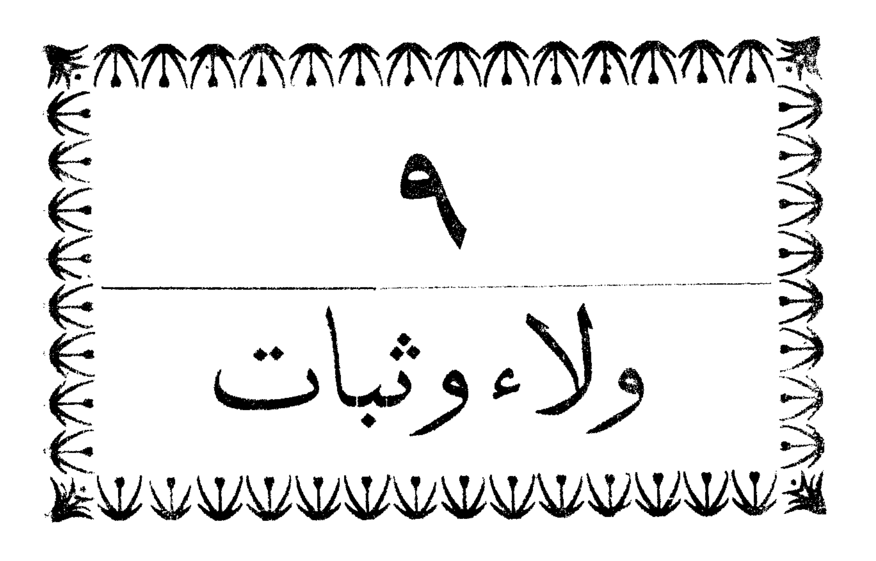
— ولئن جرت عليّ الدواهي مخاطبتك فاني لاستصغر قدرك ، واستعظم تقريعك واستكثر توبيخك ، لكن العيون عبرى ، والصدور حرى . . .

وتعود زينب من عليا الفصاحة ، وهام البلاغة لترى يزيد قد اطرق الى الارض مبهور العقل حاسر الطرف واله السمع حائر الفكر يعبر حاله عما قالته له :

— ولتودن انك شللت وبكمت ولم تكن قلت ماقلت .

هذه صرخات زينب التي مازالت تشرق بها صفحات المجد ، وترددها انحاء العلاء ايقظت بها من طوته سكرة الكرى في ظلال التمويه والافواء فكانت صولة اطاحت بملك بني امية الاثيم . . فبهذا القلب العظيم لهذه الانثى السامية ، وبهذه النعومة والرهافة كان نضال سليلة الطيبين ورضيعة الوحي والرسالة ، . وكيف لا يكون ذلك وهي ابنة الزهراء وسليلة الاباء .





٩

ولاء وثبات



لاح ضوء الصباح ، وبدت طلائع نوره فاستيقظ الشيخ التقي من نومه ، وقام ليتوضأ ثم يغرق في عباب الخشوع في صلاة العارف المتدبر ، بعدها راح يبتهل الى الله ان يرفع عن وجه هـذه الامة المكدودة هذه المعضلة التي بدأت خيوطها تلوح في الافق مع خيوط الفجر . . .

فها هي امة الاسلام وقد مضت بها سفينة الاهوال في خضم المنايا ، وهذا ركبها المثقل بالالام يغور في القحط ، ويخوض قفار الاتعاب ، ومفازات العناء : فمعاوية معين الخبث والـدهاء ولى الى حيث جزائه الاوفى ، وقد مهد الطريق لابنه ، فما الذي يرتجى للمسلمين من خير ؟ ومـا الـــذي سينتظرونه من ابن معاوية غير الذي جاءهم به ابوه ؟

وان يكن معاوية قد غلبهم بدهائه ومكره وسد ابواب الغلبة على الناقمين منه ولم يكن يرتجى للثائرين عليه من عزة وفلاح فلم لا يقم الطيبون الاحرار ويصرخون في وجه الباطل الذي تمثل في يزيد الذي لم يرث من ابيه حدة المكر وشدة الدهاء . .

وتعالت صيحات الناس في العراق تهيب بالحسين ان أقدم علينا فقد أينعت الثمار واخضر الجناب ونحن لك جند مجندة ، وكان الشيخ في طليعة الجند ، وكان صوته الصوت الجاهر من بين الاصوات التي هتفت بالحسين تدعوه الى القدوم ، وتعده الاعانة والنصرة ، ووجد الحسين في هذا وسواه باباً لأنطلاقته التي كان لابد منها ، فلابد للصرح الذي امتصت افعى الشرك الجديد دمه — من دم يجري في اوصاله وليس هو الا دم الحسين ، ومن غيره ؟ وهو الرائد والقائد والامام والهادي . . . فمضى ينقل خطوات البطولة والاباء والتضحية والفداء الى كربلاء حيث من ثمة تنطلق شمس ثورته تنير الارجاء ، وتغمر الاجواء . . .

وبعد حين عرف الحسين الغدر والخيانة لكنه لم ينس ان ان من بين من كاتبوه من صدقوا ما عاهدوه عليه وانهم على الذي

واعدوه فرأى ان يكتب اليهم ، وان كان يعلم ان سوف لن يغنوه بطائل الا انه اراد لهم ان يكون كل واحد منهم قبساً من الاقباس التي ستتمخض عنها الثورة الجباره وتطلقها في غمار الظلمات .

وكان ممن كتب اليهم شيخنا هذا حبيب بن مظاهر ، الذي كانت فرحته شديدة حينما راى الناس تهتف باسم الحسين ، ولكن فرحته لم تدم طويلاً فقد نكث الناس ، وفرقتهم الدنيا وخدعهم الهوى ، واعلقتهم احابيل الغواية وانصرفوا عن دربهم الذي عزموا المسير عليه . .

فها هو يرى بعينين غائرتين ، ووجه شاحب وقلب متضرم ، وجسم مرتجف ، اهل الكوفة يعدون ويستعدون لحرب ابي عبد الله ونصرة الطغاة والظالمين ، واذهله المنظر وكاد ان يغشى عليه فاسرع قاصداً بيته وهناك ظل يضرب يداً بيد ، ويتجرع كؤوس الآهات والحسرات ، وحان وقت غدائه فجاءته زوجته بالطعام فمد يده اليه غير راغب فيه لياخذ منه نصيب جسمه لاشهوته ، وجلست هي بجنبه تفعل فعله .

وعلى حين غصت هي بلقمتها ، واصفر لونها واضطربت فالتفتت اليه ، والقت على مسمعه كلاماً ليست تدري ما الذي اوحى اليها به فقالت :

— ان صدق ظني ، آلان يأتيك كتاب كريم من رسول كريم .

فصوب نظره اليها وبدت على شفتيها ابتسامة تشوبها سخرية فاي كريم بقي في هذه الدنيا وقد اجمع اهلها على حرب معين الهدى ومنبع النور ، ولم تمض ساعة الا وقد رأى نبوءة زوجته ماثلةً امام عينيه ، اذ طرق الباب فخفَّ لهوى من عنده ، فاذا هو برجل غريب بانت عليه اثار السفر ، فسأله عن شأنه ، فقال له :

— اني رسول الحسين لك بهذا الكتاب .

فسلمه اياه فاخذه وصاح دهشاً وقد صدق الحال ما قالته امرأته :

— الله اكبر لقد صدقت الحرة بمقالتها .

ثم فض الكتاب وقرأ ما فيه وقال للرجل انطلق الى سيدي وقل له :

— سياتي خلفي انشاء الله .

ودخل بيته ليجد زوجته غير بعيد عن مكانهما تنتظر على نار اللهفه والشوق ان تكون قد صدقت بما قالت ، وجاء الكتاب الكريم واسرها حبيب ، فمضت تزيل عن زوجها غبار

الخوف وقتام التردد والخشية ، ولتسكب في نفسه معين العزيمة والقوة والشجاعة فقالت :

ـــ ان انت يا حبيب لم تدفعك جرأة الرجال وحب الحق الى نصرة الحسين وخذلان اعدائه فدعني البس ثيابك وانطلق بها الى نصرة سيدي اذب عنه واقاتل بين يديه .

وعجب لها غاية العجب ، وسره ما رآه منها واحس بقدمه اشد ما تكون رسوخاً على ان يمضي في طريقه ولو كان الثمن غالياً ، فزوجته قد بددت عنه ظلمات الخوف ، وازاحت عن كاهله ثقل التردد ، وخرج حبيب لبعض شأنه ، وموقف زوجته وكلامها لا يزالان في خاطره لا يبارحانه ، فقد عظم عنده ماوقفته زوجته ازاء دعوة الحسين ، ولقد حسب ان هذا انما هو صنعة لسانها وليس له في اعماقها محل او مكان ، فود ان يختبرها ، فلما عاد وجد زوجته وقد غشيتها سحابة من الالم والمرارة ، فقد ظنت ان زوجها لم يسمع نداء الحسين ، وانه قد تهاون وتخاذل وصدق كلامه بالامس اذ قال لعمه وعين ابن زياد عليه حين سأله عن موقفه من هذه الغاشية التي عمت الناس فاجابه :

ـــ ومالنا والدخول بين السلاطين ؟

فقبله عمه بين عينيه مشجعاً فما ان جاءها حتى قامت اليه وقالت بحرقة والم :

— كأنك قعدت عن نصرة الحسين ؟ !

فوجد حبيب باباً مفتوحاً الى ان يمتحن زوجه ويختبر صدق نيتها فاجابها :

— نعم .

فاجهشت بالبكاء ، وعلا منها نحيبها ووجدت بهذه الكلمة صدق ما ساورها ودب في نفسها من ان زوجها سوف لن يلحق بالركب القادم لنصرة الحق ، ولم تفتر عزيمتها في تحريك زوجها ودفع همته فصاحت به تعيره لما ابداه لها من التخاذل :

— اذن تلوق بك هذه المقنعة .

ومضت تذكره بالكلمات الخالدات للنبي العظيم بشأن الحسن والحسين حيث يقول : —

— الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة ... ولداي هذان امامان ان قاما وان قعدا .

فاجابها :

— اولا تخافي عليك ان ترملي بفقدي وعلى صغاري اليتم

لذهبت وعرضت نفسي للهلاك .

وترد عليه ونار المرارة تتلظى من جوانبها :

ــ دعني وصغاري هنا ناكل النوى ، ونلتهم التراب ، ونغرق في جحيم البؤس وامض انت لاسمى هدف ، واروع غاية . . . اليس عظيماً ان تموت ودم الشهادة يلطخ جنباتك بعدما خضت حرب الحق مع الباطل ، وصراع الهداية مع الضلال ؟ . . . ولم اهتمامك بي وصغاري ؟ وانت وانا وصغارنا كلنا فداء لدين الله وشرعته السامية ، وطريقه القويم ، وان لي التاسي بالطيبات من المؤمنات اللاتي ذقن مرارة الترمل والله كافلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فما اشد فرحة الشيخ وهو يرى من زوجته هذا الموقف الرفيع السامي ، فشكره لها وهنأها عليه ، ووعدها بأن لايدع فرصة العمر تفوته .

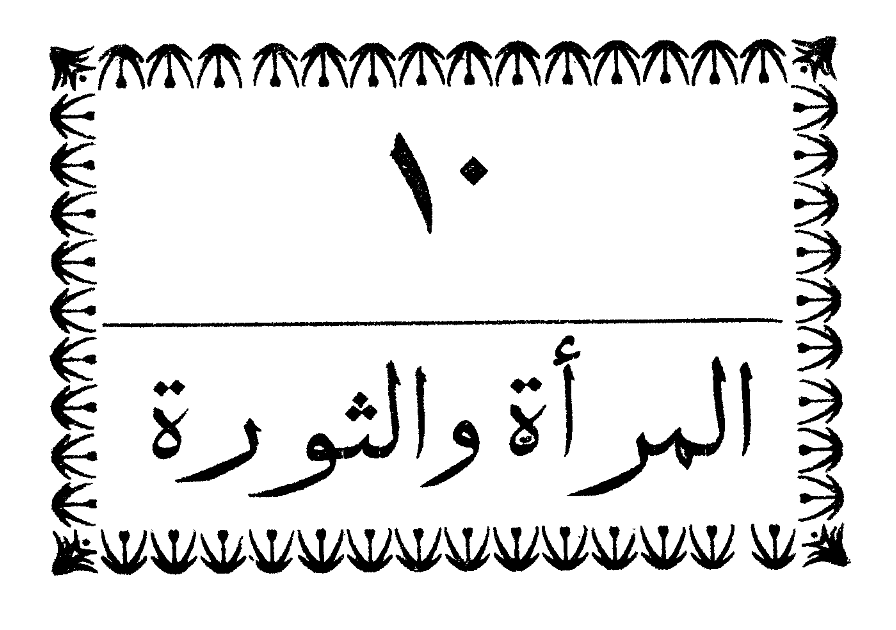
وانطلق الى دنيا المجد والمكرمات ، وكان هو بعض عطاء الحسين لدينه ، وكان هو شرارة في النار التي شبت لتحرق العرش الاثيم . . .

واحتز رأسه مع الرؤوس ونقلت الى الكوفة حيث كانت زوجة حبيب تنتظر بفارغ الصبر ، وشدة اللهفة ان تسمع من

فم البهر نبأ التضحية من حبيب وبذل المهجة في سبيل الله . .

وسمعت بمقدم الرؤس فودت ان ترى راسه مرفوعاً من بينها ، وكان لها ما ارادت ، فلما راته تبسمت ، وقالت والفرحة تغمر انحاءها :

— ياحبيب لله انت ما اعظمك ! ، لقد بذلت الجسيم ، وفديت الحسين بالعظيم ، فبوركت وهنيئا لك الجنة .



١٠

المرأة والثورة



وعاد الشرك من جديد ، ونصبت اشراكه ، ونسجت احابيلـه فتاه الناس ، وضلوا وانحدروا الى الهوة السحيقة ، فانطلق الحسين الى ساحة المجد ودنيا الخلود ، وعلى بينة من امره وعلى مضاء وعزيمة وثبات ، وتبعه من الناس الى خوض ميادين الهول من اجل الحق الجريح — كل طيب طاهر ، ازهرت في قلبه مصابيح الهدى ، وتفتحت في نفسه ورود اليقين فشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، ومضى على الطريق اللاهب يقطعه بجنان راسخ ، وقدم ثابتة ، وقد تجلبب بلباس التقوى ،

واستمسك بالعروة الوثقى ، وجعل الله غايتـه ، وجنته رغبته ،
فاغمض عينيه عن بهارج الحياة وزخرفها ، وباعها بالثمن البخس .
فقد وضع زمام نفسه بيد شريعته تقوده حيث تشاء ... واطلوا
على ارض الفداء رجالاً ونساءً امام البحر الزاخر من الشراسة
والعنف ، واحتدم الصراع ، واشتد النزاع ، وانطلقوا واحـداً
بعد واحـد الى المنحر الرهيب بعدما يـدلي كل واحد منهم
بموعظةٍ شافيةٍ نصيحةٍ مشرقةٍ لو صادفت قلوباً صاغية واسماعاً
واعيـة لاضاءت لها ظلماتها وكشفت لها دياجيها . . . وفاحت
انفاسهم العابقة بالطيب لتجلو ظلام الاختناق الـذي سد على
الناس منافذ السير على دربهم الـذي هداهم اليه الرسول ودلهم
عليه . . . ها هي كربلاء ، وهذا هو فوج النور على ثراها وقد
تكشفت من حوله افواج الليل البهيم وكان لابد من كوكب يفجر
فيها نفسه ويحترق في اوساطها ليزيل عنها بعض عماها : فان
اهتدت فـذاك ، والا فتعساً لها في دنياها وآخرتها حـين تعيش
تحت سوط الغي تتخبط في الـدياجير ثم تبعث على شر حال
وابغض صورة . . وانفجرت كواكب وشع سناها وكان من بينها

عبد الله بن عمير الـذي لحق بركب الايمان لما رآه ينقل خطى الرسالة بالصبر والشكيمة فاطلع زوجته التي كانت معه على رغبته في الانضمام تحت لوائـه ، والسير في ظلاله ، وورود مورده ، فلم يكن منها الا ان اشعلت نار الشوق في نفسه الى ما رامـه وفجرت فيها براكين اللهفة اليه اذ قالت له :

ـــ اصبت ، اصاب الله بك ، ارشد امورك ، افعل واخرجني معك .

وحين انقض من عليائه ، بدرا زاهراً بين جموع الدهماء ، وقـد اطبقت عليه حتى كادت ان تخنقه ، انطلقت اليه عصيرته في موقفه لتكون عوناً له في شدتـه ، وولت تعدو خلفه وهي تصيح به :

ـــ فداك ابي وامي ، قاتل دون الطيبين ذرية محمد .

وتحين منه التفاتـة اليها فيراها معه في الخضم فتقدح في نفسـه غيرة عليها ورافة بها فيدعوها الى الرجوع وتركه وحـده يخوض المنيه حتى يلقى ربـه ، وتتمنع وتتآبى ، وتصر على ان تموت معه لا تفارقـه ولا يفارقها ، ويمضي هو يلح عليها ولكنها تظل تتعلق بردائه وتصيح :

— لن ادعكَ دون ان اموت معك ،

ويعز على الحسين ان يراهـا قـد ابت الا ان تخوض في بحار مأساته ويطلب اليها الرجوع فناداها :

— جزيتم من اهل بيتٍ خيراً ، ارجعي رحمك الله الى النساء فاجلسي معهن .

ولئن كانت رفضت طاعـة زوجها دون رغبتها ، فهي لن تستطيع ان ترفض طاعة الحسين ، وهي انما انطلقت لاجله ، ولانـــه معين الحق ، فتخشى ان تزهق روحه عوادي الشر ، وما دام هو يـدعوها الى ما لم تكن اجابت به زوجها فما عليها الا أن تطيع ، فلقد سخرت نفسها للحق ينهاهـا ، ويأمرهـا ، فعادت راغمة ضارمة ، وهي لا تود ان تفارق زوجها وهو يجاهد الاشرار ، ويصاولهم ، فتمنت لو ان الله منّ عليها بالموت في هذه الساحة الملتهبة لتنال غايـة الشرف حين تكون من شهداء العقيدة ، ومن فداها بغاية ما تفدى به ، وظلت تلاحق زوجها ببصرها حتى اذا رأت يد المنون قد اسرعت اليه ، وانشبت فيه المنية اظفارها ، أنطلقت تغمرها البشرى نحوه ، حتى اذا وصلته احتضنته جذلانة محبورة ، لما آل اليه من خير ونعمة ، ولاتزال جحيم الحزن تغلي بـين جوانحها لانها منعت عن أن تظل معه ،

حتى تكون قد فازت بما فاز به ، ولكن الله لم يهأ ان يقتل املها في نفسها ويصدها عن بلوغه فتحركت يد الغلام في الجيش المعادي واهوى عليها بالعمود بضربة حازمه فاضت روحها منها ، وها هي بجوار زوجها جثةً هامدةً ، بينما راحت روحها مع روحه في عناق حالم في دنيا الاشراق عند الله العظيم . . .

* * *

وتطل صفحة بيضاء ساطعة اخرى من عطاء الحسين يوم وقفته الكبرى ، وسناء هذه الصفحة ينطلق من وجة واحدة من النساء اللاتي يصفهن الناس بالضعف والتراجع عن مواطن البأس والشدة ، وتلك هي زوجة جنادة بن الحارث السلماني الذي لم يبخل بنفسه وعياله من اجل اعزاز الحق ، واذلال الباطل وحين رأت زوجها قد فتحت له الحراب — التي مزقته — باباً الى ما تمناه من مرافقة الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء في كنف رحمته ورضوانه ، لم يكن منها

اذ رات ذاك الا ان سمت الى ولدها تحثه على ان يفعل كفعل أبيه ، ويحذو حذوه ، ويسلك دربه في البذل والفداء فيرد منهل المجد ، ومعين العلياء ، احتضنته وقبلته بين عينيه ، والقت على مسمعه عبارة خاشعة ، لها جلال في نفسه ، قالت له :

— اخرج يا بني ، وقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله .

فهب عاصفاً ، ومضى الى الحسين يستأذنه ، واحب الحسين له ان يكون عند الله كأبيه في الدرجات العلى والمقام الاسمى ، ولكنه كره ان تفقده امه بعدما فقدت زوجها فنظر الى صحبه وقال لهم :

— هذا شاب قتل ابوه ولعل امه تكره خروجه .

ولكن الشاب اجاب

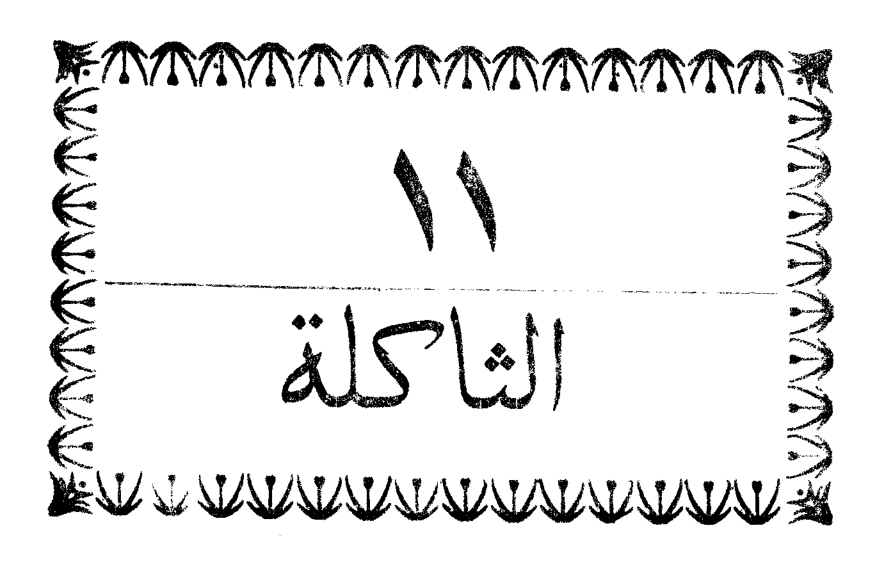
— امي امرتني بذلك .

حتى اذا اذن له نقل اقدامه الى منيته ، ووهب روحه لبارئها فلما احست امه بمصرعه عز عليها ان يحظى زوجها وابنها بالرفعة والعلاء ، وارتداء ثوب الشهادة المعرق العاطر ، وتبقى

هي بجدبة الساحة مقفرة الدار من هذا الخير الذي نالاه ،
فثارت فيها همة الرسالة ، وهزت عمودها في يدها ، وانطلقت
نحو الوحوش الكاسرة ، وبدلاً من ان تفترسها الوحوش افترس
عمودها منها رجلين ، ولولا ان الحسين ردها الى خيامه لكانت
نالت ماتمنت وحظيت ببغيتها .







١١

الثاكلة

تزوجها علي لتنجب له ذرية طيبة ، تسارع في الخيرات ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، ومنّ الله بلطفه عليه بما تمناه فوهبه من تلك الارض الطيبة اربعة اغراس على ضفاف نهر الايمان فاستوت على سوقها ، واشرقت بسناء الهدى ، ونور الاسلام ، وشاءت السماء ان تتحفهم بالوسام الرفيع ، والشرف العظيم بالاستشهاد مع سبط الرسول ، ورائد ثورة الحق في وجه الباطل وعلى عروش الطغيان ، وبانت بواكير الثورة ، ولاحت علائمها .

وحان يوم الرحيل الى العراق فشدوا رحالهم مع اخيهم وعين الام تتطلع اليهم ، وقد علمت أنهم سائرون الى منحر الفداء لتقطع رقابهم ، وتنطلق من هناك شموس التضحيه تكتسح

معاقل الظلام ، ودبت في نفسها نشوة الفرح والسرور ، اذ لمحتهم وقد شدوا على عضد الحسين ، ووهبوه انفسهم ، يفعل بها مايشاء . .

وتؤوب من دنيا الوداع وملؤها الاستبشار لثبات بنيها على الحق ، وبسالتهم من اجل الايمان وتكر عليها الايام وقد طوت في احنائها فاجعة الدهر ومأساة الابد . وفيما هي ساهمة تحوم بمشاعرها على دنيا العراق علها تنظر عقبى مسيرة الحسين ، اذ يعلو صوت حزين ونداء ناعية صارم يصك الاذان ويملأ احياء المدينة بالرعب والوجل فهبت مذعورة ولاتكاد تستمسك في مشيتها واتجهت صوب الناعي واذا هو رجل قد ملا وجهه الغبار ، وبانت عليه وعثاء السفر ، ودموعه تنتشر على خديه ، وقد اخذت منه الحيرة مأخذاً عظيماً ، وبدى وجهه كوجه محتضر على شفا جرف من الموت ، انه ناعية" وصوته جاهر ينفح بالشؤم فمن يا ترى هذا الذي عدت عليه يد الايام ، واملكته سطوة القدرة . . . ويرى الرجل امرأة محتشمة عليها سيماء الوقار ، وعلامة الشرف تطلبه وتحث الخطى اليه وهو ينادي برفيع صوته :

يا اهل يثرب لا مقام لكم بها

قتل الحسين فادمعي مدرار

فتصفعها الدهشة ، وتوقعها في ما يشبه الخبال ، وتجهد نفسها للوصول اليه على متن خطاها المتعثرة . . .

ونقف عنده وهي تمور اسىً وحزناً ، فلا تقدر ان تفصح عما يجيش في صدرها ، ويسعفها البيان فتصيح بالرجل — وهو الآخر قد غلبته الدهشة على امره من مصاب الـذي ينعاه ومن امر هذه المرأة التي وقفت امامه — تسأله :

— ايها الناعي اخبرني عن الحسين افلا يزال ينعم بالحياة ، ام قد احزبته الخطوب وارقبته المنايا .

ويستعر العجب في قلب الرجل ويهمس في نفسه :

— مالهذه المرأة أبها مس ؟ ! ام هي تهجر ؟ ! الم تعلم باني انعى الحسين ؟ وصوتي يخبر الفاجعة بمصابه .

وفتح عينيه ليصدق ان امامـه من كلمته بما سمعه . . . واخذ قلبه يسترجع ماسمعته اذناه ، والمرأة قد اعلقت نظرها فيه تلتمس منه ان يجيبها ليطفأ ظمأ اللهفة بكأس الجواب ، ويلتفت الرجل عن يمينه وشماله ، وقد اكتظ الناس من حوله ليعرف منهم احداً يسأله عن خبر هذه المرأة . . . ويجد من يسأله ، ويجيئه الجواب كأنه حد السنان وقعاً على قلبه :

— انها زوجـة الامام علي بن ابي طالب ، وام بنيه الاربعة .

فزالت رطوبة لسانه ، وحارت الكلمات على شفتيه ، واهتزت اوصاله ، وامتقع لونه ، فماذا يقول لها ؟ وبماذا يجيبها ؟ والامر ليس باليسير الهين فبنوها الاربعة كلهم قد اخترمتهم يد الموت وحاق بهم امره العجيب . . . وصمت حيناً ينازع فيه نفسه التي تأبى عليه ان يلهب قلب المرأة بالنبأ الرهيب . . . وفكره الذي يلح عليه بان يجيب على سؤالها فذاك أمر ان لم يكشفه هو ، فستكشفه اللحظات القريبة ويفتح الباب الى مراده فيقول لها :

— عظم الله لك الاجر بولدك جعفر .

وكان يظن انها ستعول وتصيح ، ولكن لم يصدق ظنه فعلها وقابلت قوله برباطة جنان ، وكان امر ابنها لا يمسها بشيء من الالم فتقول :

— ومتى سألتك عن جعفر ؟ وهل كان سؤالي الاعن الحسين واين حط الرحال .

فتبين للرجل ان التي امامه لايهمها من امر اولادها شيء فليخبرها بمصرعهم جميعاً ، ويروح يلقي على مسمعها نبأ ذلك ومضى يعدهم واحداً تلو الآخر ، حتى اذا تلفظ فوه بأكبرهم ترنحت حتى لتكاد تسقط ، ولكنها لا تحفل لامر المنون الذي

اكلهم جميعاً ولا تأبه للرزء الفاجع بهم وترود شفتاها حديث نفسها :

— نعم الخلف لو كان ابو عبد الله حياً .

فسيهون المصاب ، ويسهل الخطب ، وينطفأ ضرام الفاجعة . .
ويدرك الرجل ما يعتمل في نفسها والذي بدى على شفتها فيجهر عليها بآخر كلامه :

— عظم الله لك الاجر بابي عبد الله .

وهنا تندك وتهوى اذ غمرتها جحيم الالام ، ووجدت عظم المصاب وشدة الرزية في قتل الامام ، ولم تكن لتجد من الاذى على بنيها لوناً من الوانه ، فماذا تبتغي من حياتهم وقد الموت سيدهم الى النهاية ؟ وماذا تجدي الكواكب مادام البدر قد افل ؟ وماذا ينفع المصباح والشمس قد غربت ؟ .

« انتهى ويليه ما بعده »



الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
وافتدته	وافتقدته	٦	٣
اكل	كل	٦	٣
عل	على	١٣	١٢
يفور	يفور	١٩	١٤
تهفوا	تهفو	٢٠	١٠
علنها	عليها	٢١	١٢
العاطفه	العاصفه	٣٨	٦
مولا	مولى	٤٦	٦
حيه	حيث	٥٠	١٦
ذيلت	ذبلت	٥٥	٤
حصدنا	زائدة	٦٠	١
اعادة	اعاد	٦٢	٩
تقيله	ثقيله	٦٧	٧
جليه	جليسه	٧١	١٤
يتدهش	يندهش	٧٢	٢

الفهرست

رقم الايداع في المكتبة الوطنية بغداد ٧٧٩ لسنة ١٩٧٧

مطبعة الغري الحديثة — نجف — تلفون ٣٣٢٦٨٢

كانت المراة المسلمة الى عهد قريب تفتقر الى شيء من الشعور بالمسؤولية الدينية الملقاة على عاتقها تجاه بنات جيلها المسلمات ، ولذا نجد الكثير مما يهم المراة بحثه والتعرف عليه قد اصبح غريبا عنها لاتكاد تبصر منه سوى معالمه الباهته وذلك لانه بين حالين : فهو اما مهمل في دنيا البحث والتنقيب، واما مسطر كتبته الاقلام الصالحة من الرجال ، والمراة مهما تفاعلت مع اقلام الرجال فهي سوف تكون اكثر تفاعلاً، واعمق تأثراً لو قرات مايخصها بقلم امراة تعيش ماتعيشه هي من واقع في الحياة .

السعر ٣٠٠ فلس

بنت الهدى